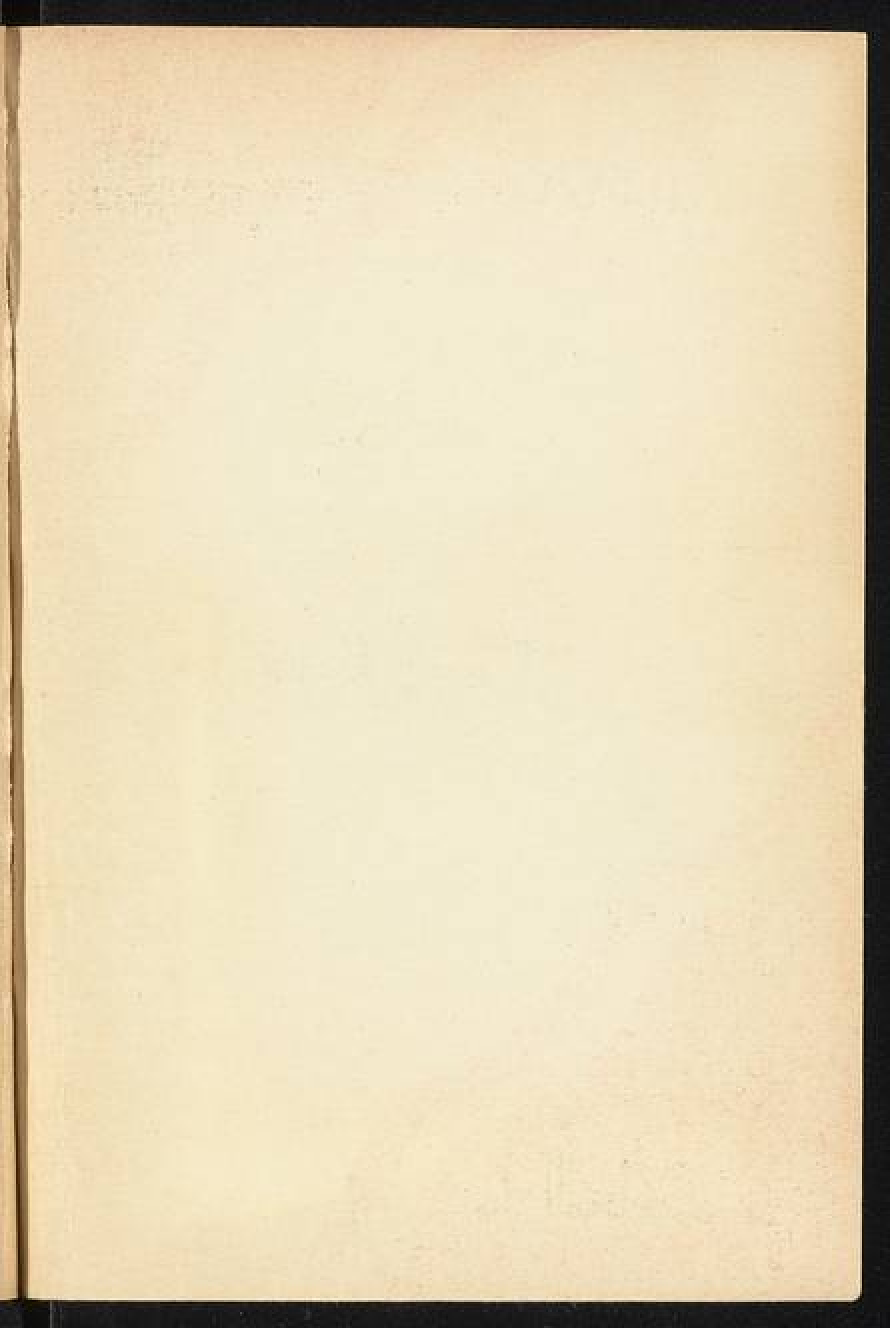


اقرأ

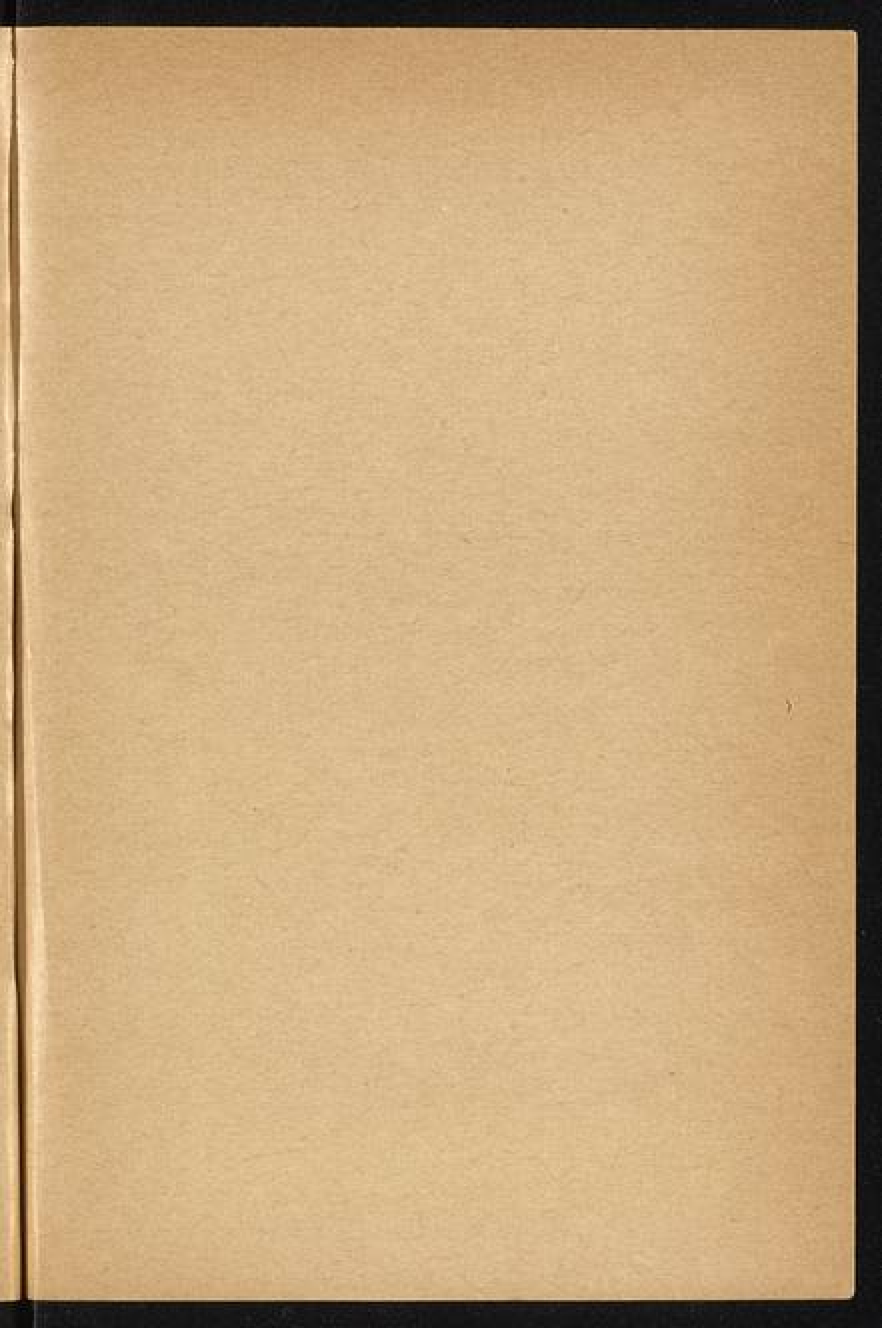
سامي الكيالي

بنت يزيد

دار المعارف بمصر



بنت یزید



Karay, Refik Halit

سامي الكيالي

بنت يزيد

Bint Yazīd

اقرأ ١٥٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٥٥ - نوفمبر سنة ١٩٥٥



هذه قصة من روائع قصص الأدب التركى المعاصر ، دبج فصولها الكاتب الصحفى الأديب الأستاذ رفيق خالد ، أحد بناة الأدب التركى الحديث ، وقد عاش المؤلف فى هذه الجواء التى رسم صورها وأبدع ألوانها وشهد بعض حوادثها ، فجاءت قطعة من نفسه وصورة حية من أدبه وتصويراً رائعاً لكثير من أحداث الحياة وملابساتها .

وإذ خلا أدبنا أو كاد من نماذج مختارة من الأدب الروائى التركى فقد رغب صديقى الدكتور إسماعيل أحمد أدهم أن نعمل على نقلها إلى العربية . . . وما كدنا نمضى حتى كانت مأساة انتحاره ، فصدمنا تلك الصدمة الأليمة التى أفقدتنا عنصراً حيًّا كانله شأنه فى حياتنا الفكرية . وقد توقفت آنئذ عن عن الترجمة . ثم بدا لى أنه لا يصح أن يحرم القارئ العربى من هذه الرواية الفذة ، وقد بقى منها فصلها الأخير ، فأقدمت على إتمامها . وهأنذا أنشرها وفاءً لذكرى صديقى الراحل من جهةولكيلا يحرم القارئ العربى —من جهة ثانية— ثمرة جهد بذله الفقيد فى ترجمة هذا الأثر الأدبى النفيس .

سامى الكيالى

١

هنالك نفر يرغبون فى أسفارهم أن يتحدثوا للوهلة الأولى مع أول من يقابلهم . يتداخلون مع السيدات ، ويتنادرون، ويلاعبون الأطفال ، ويتشاكون مع الشيوخ ، ويظهرون صلاتهم بكل شيء . أما أنا فلم أكن من هؤلاء !

وقد تكون أخطار البحار فيما مضى والضيق الذى يورثه ركوب البحار مما يستوجب ذلك لأبناء العصور الماضية ، حيث كان المسافرون عادة ينزلون فى ركن ضيق من السفينة غير خالصين من خشونة المكان وتلاعب اليم بالسفن ، وما يتخلل السفر من اهتزازات تورث الاضطراب . لهذا كانت جموع المسافرين تضطر للاجتماع فى ركن من أركان السفينة ، مستمدين من روح الجماعة القوة على مغالبة الصعاب ، واجدين فى اجتماعهم سبيلاً للتفريج عن ضيق نفوسهم .

واليوم صارت وسائل السفر الحديثة — بما تحوى من عناصر الراحة التامة — تنقذنا من متاعب التعارف بمن

لا نحب ولا نرغب فى تعارفهم ، لهذا لم أكد أصعد إلى الباخرة التى كانت على وشك الإبحار من ميناء مارسيليا فى جو عليل يحاكى أجواء الربيع ، حتى ذهبت توًّا للقمرة التى حجزتها وأودعتها حقائبى ، وخرجت وحدى لظهر الباخرة أقطعها ذهاباً وإياباً ، مسترسلاً فى أحلامى ، شاعراً بروح الاطمئنان يغمرنى فيورثنى الدعة . ولم يكن هنالك من شىء يقدر على أن يقضّ من مضاجع الاطمئنان فى نفسى ، ولم يكن بى حسرة على فراق فرنسا ، لهذا كانت نظراتى ترتد عن صخور الشاطئ الفرنسى التى أخذت تختفى وراء الأفق جامدة دون أن تجيش بإحساسات أو عواطف رقيقة . وكنت أقطع الوقت بالسير ، وبالسير وحده بدون أن يكون لى وجهة معينة ، فكنت أسير كيفما ساقتنى قدماى ، وفجأة تقابلت بغادة تسربلت بالبياض وكانت ممشوقة القد ، أميل إلى الطول ، تسير مثلى بخطوات وئيدة كيفما اتفق دون أن تلقى نظرة اهتمام للمحيط الذى يكتنفها ، ولفت نظرى منها سمرة خفيفة تمشت فى أطرافها ووجهها ، سمرة تحاكى سمرة حبات القمح التى كومت بعد الحصاد وتركت تحت أشعة الشمس الذهبية الغاربة ، أما وجهها فكان جميلاً والظلال التى به لست أدرى

بماذا أشبهها ؟ قد تكون أشبه بالأطياف أو بأظلال الربيع الوارفة عند الغروب . أما عيناها فكانتا تحت أشعة الشمس أشبه ما تكون بحلقات زرقاء تحاكى زهر القرنفل قد انطوت على دائرة من الكهرمان أخذت تلمع وتشع ألواناً وأطيافاً تغمر ما حولها .

مضت الغادة ولم تظهر اهتماماً لرؤيتى . . . أما أنا فحاولت أن أتصنع عدم الاهتمام ، غير أنى كنت أختلس النظر إليها كلما حانت الفرصة . وشعرت بإحساس غريب يدفعنى لأن أستوقفها وأجيل النظر فى وجهها وشعرها الأسود الحالك وعينيها الزرقاوين .

وبينما أنا سابح فى إحساساتى وتخيلاتى رأيت فجأة منظراً عجيباً : رجلاً تجلل بالسواد ، متوسط القامة ، مرتدياً جبة أو ردنكوتاً . كان أقرب ما يكون لشيخ أو قس من الذين سمحت لهم قوانين اللباس فى تركيا بارتداء اللباس الدينى الكهنوتى . غير أن فارقاً كبيراً يمكنك أن تحسه للوهلة الأولى بينه وبين القسس والشيوخ فى تركيا ، فإنه وإن اتفق معهم فى مظهر اللباس والشكل العام إلا أن لحيته التى تبدو وكأنها

مطرزة ، معقدة معقوصة عقصات كانت تجعله أقرب ما يكون إلى كاهن أشورى من كهان ذلك العهد الغابر منه إلى قسس وشيوخ اليوم .

أخذ هذا الرجل يسير بخطوات وئيدة وعليه مظاهر الاحترام حتى اقترب من الغادة التى استوقفت نظرى وأومأ إيماءة احترام ، وانحنى أمامها وتشابكت أصابعه واستقرت على وسطه ، فكان فى مظهره أشبه ما يكون بمظهر الإنسان فى صلاته . وأخذ يتحدث إلى الغادة الحسناء بلغة لم تصل إلى سمعى مقاطعها حتى أستطيع تمييزها . وأخرج من جيب جلبابه الداخلى بعض الجرائد فمدت هى يدها وأخذت واحدة ألقت نظرة عليها . ولفت نظرى من الصحيفة أنها تحمل اسم « الماتينو » . . . فغرقت فى تأملاتى ورجحت أن تكون هذه الجريدة تصدر باللغة الإسبانية . وفجأة أخذت أعنف نفسى على استرسالها فى هذا الموضوع ومضيت أسير دون أن اهتم بالنظر إلى الحسناء الأندلسية أو الكاهن الأشورى . غير أنى فجأة انتفضت عندما انتهى إلى سمعى عبارة قالتها الغادة التى كانت تطالع صحيفة إسبانية للكاهن الذى كان يتراجع من أمامها متأهباً للانصراف . كانت العبارة باللغة الكردية : إحدى اللهجات

الشائعة فى ولايتنا الشرقية ، وكنت قد تعلمتها فى أثناء وجودى فى هذه الولايات المتطرفة نحو الشرق من آسيا الصغرى . وكان معنى عبارتها : قابلنى بعد ساعتين .

غرقت فى تصوراتى وبمخيلاتى وأخذت أبحث عن الصلة التى تجعل غادة إسبانية تعرف اللغة الكردية فتتحدث بها . وكانت الدهشة التى استولت علىّ عند سماعى تكلمها بالكردية مما استوقف نظرها واسترعى انتباه محدثها ، فانتهت نظراتهما إلىّ فاضطررت أن أبتعد عنهما وأتركهما بمفردهما .

كان هذا الحادث سبباً لتشتيت أفكارى وإثارة اهتمامى . وكنت أحب أن أقضى سفرتى فى دعة واطمئنان ، غارقاً وحدى فى أفكارى وتأملاتى ، لا يقطع صفوها شىء ولم تكن هذه الوقائع لتمرّ دون أن تستوجب اهتمامى . . . لقد كنت أخطو خطواتى الأولى من سفرى حين فوجئت بهذا المنظر المسرحى : فتاة إسبانية تتحدث الكردية . وفجأة افتر ثغرى عن ابتسام، حينما تذكرت أنى على وشك الانغمار فى مأساة لا أعرف قرارتها .

* * *

لم تبد الغادة الإسبانية على مائدة الظهر ، وفجأة لمحتها قبيل الغروب على ظهر الباخرة ، وكانت تتجاذب الحديث

مع ربان الباخرة . وخيل إلى أن حديثهما يجرى حولى ، وكنت أعرف الربان من قبل ، حين كان يشتغل بالباخرة « لوتس » التى أغرقت سفينة أخرى فى حادث اصطدام ، وكنت أنا من أعضاء لجنة التحقيق فتعرفت إليه وقتئذ .

مضيت بعد فترة إلى غرفة الربان ، وكان بابها مواربا ، فلما رآنى تحرك من مكانه وتقدم نحوى هاشاً فقلت له : لقد أتيتك من أجل أن أستقى بعض المعلومات ، وآمل ألا أكون قد أقلقتك بمجيئى . فنظر إلى وجهى وابتسم قائلا : أعن غادة حسناء ؟ !

فقلت : ليس هنالك ما يمكن أن يقال عن فراستك .

فأجاب : ليست المسألة مسألة فراسة ، لأن تلك التى تريد أن تستقى عنها بعض المعلومات كانت هنا تستقى بعض المعلومات عنك . لقد قلت لها إنك من أعضاء المجلس الوطنى الكبير فى تركيا الحديثة ، وإنك من أعضائها البارزين ذوى النفوذ الكبير . شاركت الغازى فى رفع السلاح لتحرير تركيا . وقد أظهرت اهتماماً كبيراً وتقديراً .

فقلت : ليس لك إلا أن تثيرنى من جهتها ! وأرجو ألا تكون معلوماتك قائمة على عنصر المبالغة ، فلست اليوم من أعضاء المجلس الوطنى بتركيا كما قلت لها . ولقد انصرفت

عن السياسة أخيراً .

فجذب الربّان من أمامه درجاً أخرج منه بطاقة وقرأ لى منها : الآنسة زيلى ديلا يزدى ، ولدت عام ١٩١٠ ، بمدينة مندوذا بالأرجنتين . ولقد صحبها حتى الباخرة فى مارسيليا قنصل الحكومة الأرجنتينية العام . وهم يتحدثون عنها بأنها غنية ومفرطة فى غناها . ولقد سمعت أنها ستذهب إلى بغداد ، وهى تحسن الفرنسية .

قلت فى نفسى : « وأيضاً تعرف الكردية » وتوجهت إليه بحديثى : نعم ، إنى أشكرك ولكن هنالك نقطة أريد أن أجليها . . . هل سبق لها أن ذهبت إلى الشرق ؟

فأجاب : كلا ، كانت منذ هنيهة تتحدث إلىّ ، وتقول إنها غادرت أمريكا للمرة الأولى ، وإنها ترغب فى التعرف إلى أحد المسافرين الذين لهم معرفة مستفيضة عن سوريا . وقد أردفت رغبتها بأن توجهت إلىّ لأجد لها . . .

فقلت : ألا تقدمنى إليها ؟

فأجاب : بكل سرور ، وأظن أنى بذلك أحقق لها رغبة يجيش بها صدرها .

ولقد حملت عبارته الأخيرة على لطفه الفرنسى ، وغرقت

فى تأملاتى عن هذه الغادة التى ولدت بالأرجنتين ، ولم تغادر أمريكا من قبل . والتى تعرف الكردية وتتحدث بها . وأخذ هذا الموضوع يشكل فى ذهنى مع الزمن لغزاً ! فلو تحدثت العربية لكان فى الإمكان تصور ذلك ، لأن بالأمريكتين وخاصة بالأرجنتين وجنوب أمريكا جاليات سورية ولبنانية استقرت هنالك ، ولها جرائد تصدر بالعربية ، والمطابع العربية تخرج من المهجر الكثير من الكتب .ولكنها تتحدث الكردية ، وهنا موضع الغرابة والدهشة ؟

وأخذ الغروب يضع نهاية لمنظر البحر الذى كان يبعث فى قلبى الكآبة ، وبدت المياه ساكنة والظلال متناثرة والأطياف من حول الباخرة تتألق على صفحة الماء منعكسة عن أضواء الباخرة . كانت ساعة يغمر الإنسان فيها الهدوء والدعة والراحة .

وكنت أقطع ظهر الباخرة مع الربان ، وبدت لناظرنا « زيلى » الغادة الحسناء وقد تسربلت بالبياض كالصباح . وتقدمت إلينا وقالت : لو سمحت لى أيها السيد . . .

وظهر زميلى الربان فى موقف لا يحسد عليه : يكد ذهنه ليتذكر اسمى بلا جدوى . وأخيراً قررت أن أسارع إلى إنقاذه بذكر اسمى ، ولكن يظهر أن الغادة الأرجنتينية سبقتنا

فقالت : ألست السيد حكمت على !

فأحنيت قامتى وكلى حيرة وعجب ، وضغطت على يدها التى مدتها بحرارة وقوة . وتقابلت نظراتنا . ولمست هى أن نظراتى إليها طالت عن المعتاد فأسبلت عينيها ، فبدت رموشهما فى ظلالهما آية الإبداع . وقطعت نظراتى إليها بحديثى الذى بدأته دون أن أتقدم بالاستفسار عن اسمها باعتبار أن معرفتى لاسمها طبيعية .

قلت : لكم أخشى ألا يكون فى مكنتى أن أزودك بمزيد من المعلومات عن سوريا ، لأن الوضع الإدارى فى سوريا قد تغير ، وحدثت تغييرات جديدة . . .

فأجابت : إنى لأعرف ! إن هذه التغييرات عملت لتزيد من مشاكل سوريا ولبنان . لقد شكلت حكومة فى جبل العلويين وأخرى فى جبل الدروز ، ولكن هذه الحكومات فى شكل ولايات خاضعة لنفوذ الرؤساء من الأجانب فى بيروت .

فقلت : إنى لأرى أنك يا آنسة تثيرين ذهنى فى هذا الموضوع !

وضحك ثلاثتنا معاً . وبدت ثناياها ناصعة البياض ذات حمرة خفيفة كتلك التى نلمسها على الأصداف . وأخذت

الأضواء تتراقص عليها ومضى الربان معتذراً بأشغاله وبقينا وحدنا ، فقلت لها : أظن أنك لا تعرفين النظم والأحوال القائمة فى سوريا فحسب ، بل تعرفين بعض اللغات واللهجات المتداولة فى الشرق الأدنى إلى جانب ذلك .

وتخضب وجه الغادة الأرجنتينية بحمرة خفيفة ، وكأن ناراً انعكست ظلالها عليه ، ولكن هذه الحمرة سرعان ما تلاشت ولحظت أن نظراتها تصرمت ورموشها اشتدت فبدت سوداء حالكة جعلت لعينيها منظراً آخر . وقالت لى : ألا تشرب شيئاً ؟

وكأنها كانت واثقة أنى سأتبعها ، ولهذا خطت خطواتها إلى الأمام ، ولمحت فى سيرى وراءها حالة أشبه ما تكون بسير الشاة وراء راعيها .

وعقب العشاء . . . ونحن نقترب من الشاطئ الأفريقى بباخرتنا والجو آخذ فى الميل نحو السخونة ، وريح الليل الذى يهب علينا حاملاً نسيم البحر، يداعب أطراف ثوبها الفضفاض، فينتهى حفيف ثوبها إلى سمعى كلحن شجى كله طرب — كان النسيم يداعبها فيظهر تقاطيع جسمها ، ويعبث بردائها فيحيلها تمثالاً حياً فى ناظرى .

كنا قد تعشينا وشربنا ورقصنا ، وها نحن أولاء نقطع

ظهر الباخرة جيئة وذهاباً . وكانت قد تركت حقيبتها على المائدة فرنت إلىّ ببصرها وأومأت لى وطلبت منى أن أقدم لها لفافة من التبغ . فقدمت لها واحدة وأشعلت لنفسى أخرى . . . وشدت على اللفافة فى نفس طويل وقالت متسائلة : أتبغ هذه اللفافة من تبغ سمسون ؟

فقلت مجيباً : قد تكون من تبغ سمسون وقد تكون من تبغ أزمير ، ولكنها على كل حال من تبغ تركيا .

وبعد فترة وقفت متكئة على سياج الباخرة وقالت لى وثغرها يفترّ عن ابتسامة حلوة : ما هى معلوماتك عن الأرجنتين ؟

فقلت: إنها قليلة !

وأعقبت قولى متحدثاً عن بوينس أيرس ، وعن قطعان الغنم والجاموس والبقر ، وعن وفرة محصول القمح وعن مساحة البلاد التى تقرب من خمسة أضعاف فرنسا ، وعن سلاسل جبال الأنديز ، وعن أشياء كثيرة بوجه يجعلنى لا أسقط فى الامتحان، ولكنه لا يسمو إلى مرتبة الامتياز والتفوق . وسألتها بدورى : ولكن ما هى معلوماتك عن تركيا ؟

فأجابت : لا أحب أن أجعلك تسأم بذكر جميع ما تعرفه !

وحينما رأت إصرارى على سماع إجابتها ، ذلك الإصرار الذى دفعنى إليه تأثير الخمر ، قالت : إذاً فى هذه الحالة

يجب أن أعطيك فكرة عن معلوماتى ، ولكن . . .

ثم غرقت فى تأملاتها وقالت أأحدثك عن عدد الولايات التى زادت فى تركيا ؟ إنها ثلاث وستون ولاية ! أم أحدثك عن معنى رمز السهام الستة التى فى العلم التركى الجمهورى ؟ إنها رمز الجمهورية والشعبية والدولة والمدنية والملية والانقلابية، أسس الانقلاب التركى الحديث . . . أم أحدثك عن الأتراك من وجهة النظر القديمة ، أم استناداً إلى النظريات الحديثة التى تستند على أصول عنصرية تنتهى للشعب الحيثى والسومرى ؟

فقلت : أتسمحين لى أيتها الآنسة أن أقول لك إنى أرى فيك أسراراً لا يسبر غورها .

فقالت مبتسمة : أراك تدور وعلى لسانك سؤال تريد أن توجهه لى ، وهو كيف أعرف الكردية ؟ وأنت تحاول إلقاء هذا السؤال من الصباح ، وهو يدور على طرف لسانك، ولكن يظهر أنك لم تجد شجاعة على إلقائه !

فقلت لها :ومع كل فأنت سر لا يسبر لك غور !

وفى هذه اللحظة أحسست كأن إنساناً ورائى ، فالتفت فإذا بى وجهاً لوجه أمام الكاهن الذى رأيته فى الصباح ، وقف عاقداًيديه على صدره ، وقد أغمض عينيه ، فكان أشبه ما يكون بصليب محفور فى جذع شجرة !

٢

انتهيت إلى قمرتى بالباخرة، وخلعت عنى رداء الردنكوت، وأخذت أفك عن عنقى ربطته ، وشممت للمرة الأولى فى يدى رائحة طيبة لم أشمها من قبل . لقد كانت رائحة بقيت فى يدى حينما كنت قابضاً على يد « زيلى » منذ هنيهة . وكنت أحدث نفسى : يظهر أنها جاسوسة . لا شك أنها تقوم بدور ماتا هارى ، ولكن فى عهود السلم ، قد تكون قاصدة لتلعب دوراً كدور لورانس . إنها لا شك ليست فى سفرتها الأولى لأوربا والشرق كما تدعى ، ورغبتها فى أن تقصد زيارة أنقاض المدائن القديمة فى البادية ليس إلا خداعاً منها . هى تعرفنا جيداً كما نعرف أنفسنا ، ولست أدرى ما هو الدور الذى ستلعبه فى مهمتها وفى سفرتها هذه ؟

وفجأة تصاعد الدم شديداً لرأسى حينما تصورت أن دورها يتصل ببلادى ، فمنذ سبع سنوات كان اليوزباشى مودفولد الإنجليزى نزيل بغداد بالعراق مكلفاً بجمع أشتات الأكراد والأرمن ، وكانت جهوده تتجه لتأسيس جمعية

« خيبون » التى غرضها تحرير الأكراد . وكانت نتيجة أعماله إثارة الأكراد على تركيا ودفعهم إلى العصيان، حتى رفع علم الثورة الشيخ سعيد، وقد لاقينا نحن فى تركيا الصعاب فى إخضاعهم والعمل على جعل الأمن مستتباً بين ظهرانيهم . فقد كنت أذكر كل هذا منذ كنت عضواً بالمجلس الوطنى الكبير بتركيا .

لقد كانت سوريا ساحة أفعال جمعية « خيبون »، و « زيلى » الحسناء الأرجنتينية تقصد سوريا ، ومن هنالك ستذهب للعراق ، وفى صحبتها كاهن أشبه ما يكون بكهان الأشوريين القدماء ، وهى تتحدث معه بالكردية ، وقد تتحدث غداً مع غيره باللغة الأرمنية ، ومعى بالتركية ، ومع الأعراب فى الصحراء بالعربية .

وكنت أراجع نفسى وأقول كل هذه أضغاث أوهام ، إنها ولدت فى مدينة مندوذا بالأرجنتين ، وهى مليونيرة ذاهبة لسوريا للسياحة .

وأخذت أستعيد خواطرى عنها وأعجب لذاكرتها القوية فى حفظ الأرقام والأسماء ومعرفة الرموز وما ترمز إليه من معان . وأعجب خاصة لمعرفتها اسمى الذى انتهت إليه عن نظرة سريعة فى الغالب لجواز سفرى الذى يحتفظ به الربان .

وفجأة انبعث فى ذهنى هذا السؤال : لم تركت جميع من فى الباخرة وانشغلت بى وحدى ؟ لقد صحبتنى كل الوقت ، فهل تكلمها بالكردية أمامى كان للفت نظرى وإثارة اهتمامى وإخضاعى لسلطان جاذبيتها وملاحتها ؟ ومن ثم لاستخدامى وتحريكى للغاية التى تصبو إليها ؟

لا شك أن المغامرة التى تقوم هى بها بدأت حوادثها اليوم ، واندفعت أنا فى طياتها ، ولست أدرى ماذا ينتظرنى فى المستقبل .

لقد غادرت فرنسا لأستريح فى جنبات الشرق وها أنا ذا أرى نفسى مندفعاً فى مغامرة قد تتصل ببلادى وتعتبر جريمة ضد الوطن .

كنت أعرف أن فى سوريا جماعات كثيرة وعناصر متباينة ترغب فى سقوط الانقلاب التركى الحديث وإخفاقه . وكنت أتصور من بين هؤلاء جموع الذين اضطروا للخروج وأنوفهم راغمة من كليكيا ، وبعض متطرفى العرب الذين يرون فى وجود تركيا قوية فى الشمال خطراً على الوحدة العربية . . . وبجانب كل هؤلاء أفراد أسرة آل عثمان الذين يذكرون تليد مجدهم وتساورهم الرغبة فى الرجوع إلى أوطانهم ، ومعهم جماعة اللاجئين إلى سوريا من العناصر التركية الرجعية التى اضطرت إلى

مغادرة تركيا بعد الانقلاب الأخير . . . ويجب أن لا ننسى جمعيات الأرمن وعصابات الأكراد الذين يحلمون بإقامة دولة أرمنية وأخرى كردية ، على حساب تركيا . استعرضت كل هذه الصور فى مخيلتى وخرجت بأن سوريا جبهة تساعد أعداء الوطن فى أعمالهم .

وذهبت بعيداً بتخيلاتى وشكوكى ، وتوهمت أن الغادة الأرجنتينية « زيلى ديلا يزدى » ستنزل إلى هذا الميدان وستطلق لجوادها الأعنة فى هذه الساحة .

وكانت ليلة ليلاء ، قضيتها أتطلع من طاقات القمرة بين الفينة والفينة ، منتظراً ضوء الصباح ، فلعله ينتشلنى من هذه الأوهام التى تعرض على ستارة مخيلتى . . . وأخيراً غادرت فراشى وانطلقت إلى الخارج ، وبدت الباخرة لناظرى فى منظر كله سحر وأسرار ، وكان الجو لا يزال غارقاً فى ظلام خفيف . . .

أخذت مكانى على إحدى الأرائك المنبثة فى جنبات الباخرة ، وكلما انتشر الضوء وغمر الآفاق استولى على شعور الحياء مما كان يجول بخاطرى . وبدأ الصبح يعلن عن نفسه ، وأخذت سهام الشفق الأولى تنتصب وتنطلق فترتكز على صفحة السماء .

أشرقت الشمس وأخذت أشعتها تغسل الباخرة وتتألق فوق سطح السفينة ، وانتثرت على صفحة المياه زرقة خفيفة سرعان ما وصلت إلى الباخرة فاكتنفتها وامتدت فشملت الآفاق كلها .

وكنت على وشك النزول لقمرتى ، غير أنى توقفت فجأة . إذ أحسست بأنفاس وحركة بجانبي فظللت فى مكانى لا أتحرك يحجبنى عن الأنظار بعض آلات الباخرة .

رأيت « زيلى » قد خرجت من قمرتها الفاخرة إلى ظهر الباخرة ، وأخذت ترنو إلى قرص الشمس المشتعل فى خشوع . . . وبدت ممشوقة القوام فى ملابسها الفضفاضة ، حيث تأزرت بحزام فى الوسط ، فبدت رائعة الجمال فى شباب فياض . وبدون أن أتحرك أخذت أرقبها خلسة من العلاء .

وفجأة استقر نظرى على قدميها فإذا بها حافية . . . ولكن لماذا تدوس على الأرض حافية القدمين ؟

وقمت من مكانى وملت قليلاً أرنو إليها . وبدت لى بشعرها المهمل المسترسل على كتفيها حتى الأرض كأنها ملاك ؛ ووجهها كان ناصعاً بريئاً حتى لقد تخيلت فيها صورة العذراء التى رسمتها ريشة رافائيل ، وكنت بخيالى أرى بين ذراعيها المسيح موسداً .

وفجأة انتصبت واقفاً ولم تصدق عيناى ما رأيت ؛ لقد رأيت الغادة الإسبانية تركع أمام الشمس المشرقة وتنحنى راكعة ثلاث مرات باحترام كلى وخشوع تام ، ثم قفلت عائدة إلى حجرتها وكأنها طيف خرج من بين المقابر ، ومضت فى رجوعها متقهقرة ووجهها لقرص الشمس حتى اختفت عن ناظرى .

٣

أخذ « فيو » محدث « زيلى » يقول لها : يا آنسة إذا رغبت أن تقومى برحلة فى الصحراء على ظهور الإبل ، فليس لك إلا أن تبحثى عنى فى تدمر وتطلبينى حيث الهجين الأصيل هنالك رهن إشارة منك .

وشكرت زيلى محدثها ، وهو أحد ضباط المستعمرات ، مملوء الجسم ، ممشوق القامة ، جاوز سن الشباب ، وهو إلى ذلك ، من أولئك الفرسان الذين اشتركوا فى إقامة إمبراطورية فرنسا الضخمة المترامية الأطراف . . . غير أن الظلال التى كانت تنعكس من عينيه لم تكن لتشعر الإنسان بالأضواء

والظلال التى تعكسها طبيعة فرنسا ، على أبنائها ، وإنما تلمس فيهما البساطة والصراحة ، تلك الصفات التى اكتسبها من خيام البدو وامتداد الصحراء ، وتلمس فى روحه انبساط الأفق فى الفيافى .

وكان بالباخرة كثيرون من الضباط الفرنسيين ، الذين انتهت إجازاتهم بانتهاء الصيف فأخذوا يؤوبون إلى سوريا . وزيلى تبدو لناظرى قد أخذت جلستها إلى المائدة تراقب جموعهم عن كثب مبدية بعض الاهتمام بحركاتهم . وقد استقرت إحدى قدميها على الأخرى واستقرت يدها على ركبتيها ، وبدت غارقة فى مشاهداتها .

وتقدم منها ضابط شاب من قوات الفرسان وأعطاها عنوانه . ومع أن صاحبنا قضى عامين فى قفار البادية فى سوريا على رأس جماعة من الفرسان إلا أن أشعة البادية المحرقة لم تقدر على أن تنال من طراوة وجهه وعمق عينيه . ثم تحدث ضابط آخر طويل القامة ، عظيم الهيكل ، ظاهر القسمات ، قائلاً : يظهر يا آنسة أن طريقك ورحلتك ستنتهيان دون أن يكون مستقرى من ضمن الأصقاع التى تمرين بها ، إذ ليس فى مستقرى شىء يمكنه أن يجذب اهتمامك .

غير أن زيلى نظرت إلى محدثها نظرة عميقة وقالت فى دلال

مبتسمة : لا تحكم يا صاحبي ، فربما نتقابل !

ولقد أثار جوابها اهتمامي ، فملت إلى القائمقام الذي بجواري وسألته عمن يكون محدثها الأخير وماذا يشغل من المراكز في سوريا ؟ فقال : إنه رئيس قلم الاستخبارات في « أورده لك غاغه سي » . ولما رأى في وجهي علامات عدم الإدراك لكلامه أضاف . . . . . . إنه رئيس قلم استخبارات منطقة صغيرة محصورة بين تركيا والعراق في الجزيرة العليا ، وقد أطلق الناس على هذه المنطقة عبارة « أورده لك غاغه سي » لأنها شبيهة بمنقار البط. وفي الاتفاق الأخير .. عفواً لقد تركتموها لسوريا .

وقد لاحظت « زيلي » أمري . وإني وإن كنت لم أنظر إليها ، غير أني كنت أشعر بنظراتها تشعل النار فيّ وتجعلني أتصبب عرقاً ، ولم أجد لنفسي مخرجاً إلا أن أتحدث متظاهراً بمعلوماتي :

– نعم إنكما تتحدثان عن جزيرة ابن عمر ، ولقد تمكن أحد رهبانكم من العثور على أحد أديرتها الرومانية وتصويرها من الجو ، وغالباً . . .

وذهب حديثي كهمس بينهم ، وإن كنت مقتنعاً أن زيلي قد أصغت إليّ. وجلسنا نتسامر ، وأخذ أحد الجنود يحدثنا عن

الحكايات التى يتناقلها البدو ، وذهب آخر يحدثنا عن تفاصيل محاولة صيد الغزال بالسيارة . وكانت زيلى مستغرقة كطفل أمام مشهد سينمائى . ولم تكن فى نظر هؤلاء الذين لم يسبروا غورها مثلى أكثر من مليونيرة خرجت تتصيد المتع والسرور .

لقد كنت تخلصت من كابوس الليلة الماضية ، ولكن على ألا أترك أثر « زيلى » . وعزمت على أن أستعين بخبرة زملائى المشتغلين بإدارة التحقيقات السرية إذا استلزم الأمر . فقد كان شكى شديداً فى أنها قائمة بسياحتها لغرض معين وخطة مرسومة ، غير أن نقطتين من تصرفاتها لم تكن لتجانس خطوط تفكيرى العام ، وأولى هاتين النقطتين : أنها لم تخف معلوماتها المستفيضة عن سوريا عنى فى حين أنها تتظاهر بقلة المعلومات أمام الجميع وتتخطر بجهلها . والنقطة الثانية أنها تعمل كل جهدها لتورثنى الحيرة . . . ثم ما معنى ابتهالها وعبادتها للشمس المشرقة مع أنها منذ دقيقتين رسمت الصليب كفتاة إسبانية متعصبة حينما ورد عرضاً فى الحديث ذكر الأموات . وكيف يتفق هذا كله مع مظهرها العام الذى لا يتفق مع مظهر مسيحية متعصبة ؟

وقبيل الظهيرة كنا جلوساً إلى بعض نتحدث ، وكنت أقول لها : لقد كنت أحب أن أرى أمريكتكم منذ زمن طويل ،

ولكن يظهر أن رؤيتى لها لن تخدعنى عن حقيقتها ، ما دامت قد قدرت على أن تخلص بالانتخاب إلى مثل الآنسة « زيلى » فى الأرجنتين من العرق الإسبانى . . . هذا إذا كان انتخاب الطبيعة قد لحقك وانحدرت من سلائل الإسبان، ولكنى أشك فى أنك إسبانية ؟ ! ولهذا أشك فى مثل هذا الانتخاب !

فضحكت وقالت : إننى أرجنتينية !

فقلت : أمعنى هذا أنك فى الأصل من الأرجنتين ؟!

فضحكت قائلة : أظننى أختلف معك فى مفهوم الجنس والعرق ، لأن التكلم عن الأجناس يستلزم الرجوع إلى عصور ما قبل التاريخ . وجموع البشر الذين يعيشون الآن فى المسكونة هم نتيجة لمجموعة من الانتخابات انتهت بكل جماعة وفقاً لظروفها إلى حدود معينة عرفت بالجنس ! وإنك لن تجد أساساً يمكنك أن تبنى عليها تفريقك بين شعوب الأرض من قطر لآخر . لقد كان العلماء فى وقت ما يستندون على الملامح ، ولكن هل من الممكن أن تفرق ملامح داروين وتلستوى عن ملامح قدماء الأستراليين الأصليين . والتحقيقات التى أجراها العلماء فى القحوف البشرية أثبتت أن قحوف الإنسان فى عصوره الحجرية لا تختلف قليلاً عن القحف الذى رسموه لدماغ ألفونس ده دوديه .

فأجبتها : إن معلوماتك وإن كانت عميقة لدرجة توجب الدهشة ، إلا أنها تجعلنى أشك فى الأرجنتين كمصدر فقط لتصدير اللحوم المحفوظة ، لأنها تصدر أيضاً عقولاً راجحة ، نتيجة لما بلغته جامعاتها من رقى وسمو . ولكن سؤالى الذى ألقيته أريد جوابه فى نطاق النظريات القديمة عن الجنس والعرق ، بمعناهما الضيق الذى أنسناه .

فأجابت : إذا قلت لك إنى آسيوية فإنى لا أوضح لك شيئاً ، لأن كولمبس حين كشف الأمريكتين إنما كشف عن امتداد لآسيا وعثر على طوائف آسيوية . والمهم أنه كان بالأرجنتين نحو نصف مليون من أهالى البلاد الأصليين فى أوائل القرن الثامن عشر ، ولم يكن الأوربيون يزيدون عن خمسين ألفاً وقتئذ ، ولكن مع الزمن ازداد الأوربيون فبلغ عددهم ثلاثة عشر مليون نسمة ، وتناقص السكان الأصليون ، ولم يبق منهم أكثر من عشرين ألفاً ! وقد لا يسترعيك هذا الموضوع ولكنه يحتل من تفكيرى قطب دائرتها ، لأنى كلفة ومهتمة بالأقليات التى تأخذ طريقها للاندثار . ذلك لأنى وقفت نفسى على تحرير هذه الأقليات أو بعضها وحفظها من الاندثار !

وقد أخرجني من تأملاتي التي غرقت فيها مع كلامها ضغطها على عبارتها الأخيرة ، وتلك النظرات الصارمة التي بدت في عينيها مع لمعان عجيب ،وذهبت في تخيلاتي أضرب أخماساً في أسداس، وأخمن حقيقة هذا العنصر المهدد بالانقراض الذي تعنيه « زيلي » بكلامها . . . .

وقطعت حبل تفكيري قائلا لها : ولكن يا آنسة « زيلي » لقد فكر من قبل مثل فكرك الدكتور ويلسون وأراد أن يصون حياة الأسماك الصغيرة من أن تبتعلها الأسماك الكبيرة . وبمثاليته التي خرج بها قلب رأساً على عقب نواميس الحياة في الكون التي كانت الإنسانية دارجة عليه . ولكن من كان ويلسون هذا ؟ لم يكن إلا رسول العالم الجديد الذي ورث العالم القديم بمدنياته وأهرامه ومعابده . وهذا الرسول الجديد الذي خرج لأهل الأرض ولأوربا المتهالكة خاصة لم يأت من الله ولكن جاء من أمريكا ، ولهذا ذهبت صيحته في واد لأنها لم تصدر عن قلب عامر . وأنا شخص درجت على مواجهة الحياة لا أعرف التعلق بالمثاليات وخيالياتها ، والذي أعرفه أن الدول الكبيرة تتخذ الصغيرة ميداناً لسياستها وحلبة لجيادها وتخدع الدول الصغرى ، وتصرف في سبيل ذلك الملايين لأن عليها حياتها .

وبدت «زيلى» لناظرى غير غاضبة لاسترسالى فى حملاتى، وابتسمت حين مضيت أقول:

ـ ماذا جرى للأشوريين الذين أثارهم الإنجليز فى الحرب العظمى ضدنا؟ هل اعترفوا لهم بحقهم فى الحياة؟ لقد رفعوا السلاح فى وجهنا، واليوم يطردون من الجزيرة! ويخيل إلىّ أن السبيل السوى لهذه الأقليات أن تبقى مخلصة للأكثرية، تتعاون معها حتى لا تتعرض لأخطار أكثر مما هى متعرضة لها.

وقاطعتنى قائلة: ولكن إذا كانت الدولة التى تعيش فيها هذه الأقلية لم يعترف لها بحق الحياة وبإمكان إدارة نفسها بنفسها، فما قولك!

وإزاء هذا السؤال غرقت من جديد فى تأملاتى أبحث عن السر الذى يجول على أطراف لسان هذه الساحرة الأرجنتينية.

* * *

ولقيتنى «زيلى» منفرداً فأسرعت إلى ووضعت يدها فى يدى وجذبتنى ومضت بى سائرة وأنا أطوع لها من بنانها، وأخذت تتحدث إلى قائلة: كم كتاباً قرأته عن سوريا والعراق يا صاحبى؟ خمن كم طالعت؟!... لقد طالعت نيفاً وثمانين كتاباً، بعضها عن جيولوجيتها وبعضها الآخر عن

تاريخها وآدابها وشعرها ولغاتها ولهجاتها ، غير ما كتب فى كتب الرحلات . وكل ما طالعته أثبت لى سوء تصرف الإدارة الفرنسية فى سوريا .

فأجبت : أظن أن ليس من حسن الفطنة أن تقولى هذا ، ونحن سننزل غداً ضيوفاً على الفرنسيين فى سوريا ؛ ولا أظنك حاملة عليهم فى قولك هذا ، ولست من الذين يؤمنون بنظام الإدارة الإنجلوسكونية .

ولاحظت على « زيلى » عدم انتباهها لتلميحى إذ قالت : لا يمكنك أن تنكر أن إنجلترة لم تعط سوريا — على عهد السلطان حسين والملك فيصل — استقلالا مبكراً حتى تداس الأقليات ، وإن أعطت العراق استقلالا متأخراً ، فإنها ما كادت تنال استقلالها حتى مضت على سياسة آل عثمان الغاشمة فى اضطهاد الأقليات ، ولقد أغمض الإنجليز أعينهم عن هذه التصرفات ، فكلهم سيان من ناحية السياسة .

وسألتها : ولكن ما رأيك فى تركيا الكمالية ؟

فأجابت : إن أهم ما يسترعى انتباهى فى تركيا الجديدة أنها دولة مدنية . إنى أعرف أننى لست صريحة للدرجة التى تجعلك تطمئن إلىّ ، وذلك لأن الوقت الذى أكون فيه معك صريحة لم يحن بعد . . . .

* * *

وفى المغرب كانت « زيلى » تحدثنا عن الأرجنتين وعن سهول المنداس . وكنت أحس أنها تعمدت هذا الموضوع لتقضى على الشكوك التى تساورنى ، ولتثبت أنها أرجنتينية الأصل. وكان القائمقام الفرنسى كلفاً بحديث « زيلى » ، فكلما ذكرت شيئاً استزادها . وطلب منها مرة أن تتحدث عن سهول البمباس ، فقالت:

البمباس فى الواقع محيط مترامى الأطراف أمواجه الحشائش وأسماكه تلك الأغنام والقطعان التى تجوس فى مراعيه ، واستقلال هذه المراعى عن البحر ليس بعائد إلى عصر بعيد من العصور الجيولوجية ، لأنك لا تزال تحس بملوحة البحر فى تربة هذه المراعى وتتنفس اليود مع هوائها الرطيب الذى يعبق جوها . وأقول لكم أرضها ، ولكن أى أرض هى ؟ إنها طبقات تكونت من المواد العضوية المتراكمة ، من بقايا الأشجار والنباتات التى مالت نحو الاندثار مع الزمان . . .

وسألتها . ولكن هل جريت فى سهول البمباس وراء الخيول ، واستعملت الحنيّة فى اصطيادها ؟

وبدلاً من أن تجاوبنى مدت يدها إلى قصاصة من الورق وخطت عليها كلمتين ودعت الساقى وطلبت منه أن يذهب إلى قمرة عينتها له ، وبتنا من حولها صامتين . ومضت الدقائق

طويلة ، وفجأة بدا أمام ناظرنا ذلك الكاهن الملتحى الذى فى ركابها ، وبيده حقيبة صغيرة من الجلد ، فلما رأته « زيلى » قفزت نحوه واختطفت الحقيبة ، وفتحتها وأخرجت منها حنية من الجلد معقودة من أحد طرفيها . . . ومضت ومضينا كلنا كقطيع من الغنم وراء راعيه حينما سارت من الصالون إلى ظهر الباخرة ، وهنالك قالت بعد أن توجهت نحونا :

إنكم تعلمون أن هذه الحنية تستعمل أيضاً فى اصطياد الأعداء . وتوجهت لى قائلة : المكان ضيق فابتعدوا أكثر من عشرين متراً .

وتدفق الدم إلى وجهى واعترتنى حمرة الخجل . غير أنها سرعان ما تلاشت حينما قالت لنا : هيا اجروا ، وبعد أن أقبض عليكم نتصاحب ! وتضاحكنا ، وكان أحد الضباط الشبان قد انطلق إلى الأمام كالسهم ، وفجأة أحسست بنسيم يداعب شعرى وصوت أشبه بالأزيز مرّ من فوق رأسى وترامت عيناى يميناً ويساراً وانتهت على الحنية وقد أحاطت برقبة الضابط . وكانت « زيلى » قد أطلقت عنان الحنية من يدها وأخذت تتقدم من طريدتها وتصافحا !

وبين تصفيق الجميع ، وهتافاته غرقت فى تأملاتى

وتصوراتى مقرراً أن هذه الحسناء أرجنتينية لاشك، ومن بنات البمباس ، وإلا لما أجادت رمى الحنية هذه الإجادة ، وهى لعبة خاصة بأهل الأرجنتين .

٤

قال لى الربان يوماً : إن صديقتك ذات أطوار غريبة ، فليس فى وسع الإنسان إلا أن يحار من أوامرها فى اختيار ألوان الطعام ... السمك ، لحم الخنزير ، الخس ، الملفوف . . . إنها لا تريد أن ترى هذه المأكولات . وحينما ركبت السفينة كتبت هذه الألوان وقدمتها إلى « الميتردوتيل » . ولا أعلم ما هو موقفها حين تدعى إلى المآدب الكبرى ، إذ من الصعوبة بمكان أن نتصور سائحاً لا يتناول خلال سياحته السمك وشرائح لحم الخنزير . نعم لاقيت كثيرين فى حياتى من المسلمين الذين لا يأكلون شرائح الجمبون ، ولا يشربون الخمور .

ويشارك أميرة البمباس فى تقاليدها ذلك العبد الملتحى الذى يصاحبها ، فهو لا يأكل من صنوف الطعام ما لا تأكله ؟ ويخيل إلىّ أن السيدة وخادمها قد اقتبسا بعض التقاليد الغربية

بحكم الجوار من هنود أمريكا الحمر ، فكما أن عادات الإسبان سرت فى الشعب الهجين الذى تولد فى أمريكا من سلائل الإسبان وأهل أمريكا الأصليين ، كذلك وجدت بعض عادات الأمريكان الأصليين طريقها إلى هذا الشعب الهجين .

فكانت إجابتى أن قلت : كأنى بك يا صاحبى تريد أن تقول إن « زيلى » ثمرة اختلاط بعض الإسبان المتقدمين المخاطرين – الذين ذهبوا إلى الأرض الجديدة – بأبناء البلاد الأصليين .

فكانت إجابته : إننى لا أشك لحظة فى ذلك ، فإن المهارة التى أظهرتها ابنة النمباس فى لعبة الحنية أعطتنى هذه الفكرة ، لو كنت رأيتها حين رمت القوس لعجبت من لمعة عينيها وما بدا فيها من البريق الخاطف ، حتى لقد تمثلت فى نظرى وحشية الإنسان فى العصور الأولى مستترة وراء إهاب التحضر . . لا أريد أن أنال من إعجابك بها أيها الزميل ، وربما من حبك ، ولكن كل ما أحب أن أقوله إن كل هذه الأسرار والألغاز التى تحيط بها لا تنال منها ، لأنها تخلق من حولها هالة من الجاذبية .

ومضيت إلى مكتبة الباخرة أبحث عن الكتب والمؤلفات

التى تتناول الأرجنتين بالبحث ، وتتحدث عن شعب الجاشو المولد من امتزاج الإسبان وهنود أمريكا الحمر . وعثرت على مجلد من دائرة المعارف فيه فصل عن الأرجنتين ، وخرجت من بحثى بأن ما نطلق عليه نحن اسم الجاشو فى لغاتنا الأوربية يعبر عنه بالإسبانية بلفظ الجاوشو ، وتطلق عادة على رعاة الغنم والبقر الذين يجوبون سهوب البمباس . وتيقنت أن هؤلاء الرعاة على جانب عظيم من القدرة فى رمى الحنية وركوب الخيل .

نعم كانت هذه المعلومات ضئيلة لا تضيف شيئاً كثيراً إلى معلوماتى العامة فى هذا الموضوع ، ولم أكن قد وجدت فى فصل الأرجنتين بدائرة المعارف ما يروى نهمى .

• • •

ستمرّ باخرتنا فى الغد بالإسكندرية ، وتبقى ليلة واحدة أمامنا لنصل إلى بيروت .

وكنت قد أخذت جلستى بعد العشاء بالقرب من جلسة « زيلى » أرنو إليها بنظراتى مستعطفاً وكلى رجاء أن أستجلب نظرها فتأتى إلى جوارى . . . وكانت هى كعادتها قد لبست البياض وتزينت بلآلئها فكانت كالربيع فى زينتها ، ولم

يكن خيالى ليتصور فى هذه الساعة أجمل منها .

لقد شعرت باقتراب الساعة التى سنفترق فيها ، وكان هذا الشعور سبباً لأن يزيل من نفسى كل مخاوف منها ، وبقى شىء واحد يورثنى الحزن والملل هو فراقها . وكرعت كأساً من الويسكى ممزوجة بالصودا وأوصيت على أخرى ، وكان الجو ممطراً مكفهراً فى الخارج يبعث فى النفس الانقباض ، وكنت أرنو بنظرى من حافة « الصالون » إلى الخارج ، وكنت أرى الباخرة فى ذلك الجو المظلم المكفهر الممطر مسرعة فى مضيها ، وكنت أسمع مراجلها بحسى وكأنها استحالت قلب إنسان بما تنبض به آلاتها من الثورة والهيجان .

وكانت « زيلى » قد افترقت عن جموع الضباط وسارت ، فرنوت إليها آملا أن تتقدم منى ، ولكنها مضت بعد أن زودتنى بابتسامة حلوة صغيرة كالورود . . . وتأكدت أنها ستذهب ، فلم أحس بنفسى إلا وأنا منطلق وراءها أقول لها : يا آنسة « زيلى » ألست ترين أن من الواجب أن نتحدث قليلا إلى بعض قبل أن نفترق ؟ !

فأجابت مبتسمة : أرى أن هذه المقابلة ضرورية ولازمة ، وذات فائدة لأغراضى ، بل من دواعى سرورى . . . ولكن قبل هذا أجبنى : كم يوماً ستبقى ببيروت ؟

فأجبتها : ليست لى ببيروت حاجة . وإنه من عاداتى متى أحس بضيق ، وبعدم تفتح شعورى للاندماج فى الحياة العامة ، أن آوى إلى ركن من أركان العالم حيث أقضى بعض الوقت على هامش الحياة . فأنا أحس وكأن فى رأسى معامل تدور من الضجيج والهتاف والتصفيق ، وكأن واعيتى غرقت فى لاشعورى فاختلطت وقائعها . . . لهذا أميل إلى الهدوء ، ولعلّ هذا نتيجة الثورة التركية التى قمت بدورى فيها .

وضحكت « زيلى » ورنت إلى مبتسمة ، فوجدت فى ابتسامتها ما يشجعنى على موالاة القول ؛ فمضيت أتحدث إليها طويلا ولا غرض لى غير أن أجذبها لحديثى فأبقيها بجوارى ، وهذه الرغبة ساقت أقوالى لوادى العجائب .

فقالت « زيلى » : إن حياتك فى الخنادق وفى ميادين القتال أثرت فى نفسك .

فمضيت فى حديثى : فى الوقت الذى كنت فيه متصرفاً فى « حماة » اشتريت قرية . ونظراً لانشغالى بقيت إدارتها فى يد بعض الوكلاء . . . وهذه الأرض التى تبلغ مقدار مقاطعة بأسرها أخذت من بعض أصدقائى الفرنسيين بباريس توصية لأتسلمها وأستغلها لفائدتى الخاصة . وهأنذا ذاهب إلى هذه الأرض لأستقر فيها . إنى أطلب الهدوء فى العيش على هامش

الحياة . ولست أدرى كم سأبقى هنالك ، فربما طاب لى العيش شهراً أو شهرين وربما عاماً أو عامين ، وربما بقيت هنالك بقية أيام عمرى .

ونظرت إلىّ طويلا ثم قالت : إن شخصاً مثلك من رجال الثورات وأبطال الانقلاب ليس له أن ينزوى هكذا على هامش الحياة .

فقلت : إنهم لم يعرفونى حق المعرفة . ولم يتعد دورى فى الثورة التّركية والانقلاب سوى مرور سريع بين أبطال الانقلاب ، مما أسبغ على فى نظر البعض بطولة لست أؤمن بها ، لأنى كنت أحس بضآلتى إزاء هؤلاء الأبطال . ولست أكثر من وميض بدا فى ظلماء ليل بجانب بركان يقذف بالحمم . . .

فقالت : إن فيك استعداداً للهروب من مواضعات الحياة لما فيها من مساوئ . وبتعبير أدق فيك ميل للانحلال النفسى . عفواً فإنما أنا أتكلم من ناحية العلم ، إن فيك استعداداً قوياً لأن تمر فى دورة جديدة من دورات الحياة نتيجة لما تركه ماضيك من أثر على نفسيتك .

فكانت إجابتى أن ضحكتُ وقلت : إن هذا التصوير يذهب بى أن أتصور نفسى « پافنوس » ذلك الكاهن الذى صوره فن أناتول فرانس ، ولكن من تكون « تاييس » التى

ستلعب دورها معى فتخرجنى للحياة والتعلق بها . . .

وفجأة سألتنى : هلا تتفضل وتحدثنى عن قريتك التى ستأوى لها ؟

فمددت يدى وأخرجت من جيب ردائى محفظتى ، ووضعتها على المائدة وأخرجت بطاقة منها ، وعلى ظهرها رسمت خريطة كروكية للقرية ، وقلت : انظرى هنا حمص ، وهذا الطريق الذى ترينه يذهب من بالميرا التى يسميها العرب تدمر إلى دير الزور ... وليس لنا أن نذهب بعيداً إلى هذا الحد ، فتى خرجنا من حمص وابتعدنا عشرة كيلو مترات وجدنا القرية التى ستحتوينى واسمها « عين الزباء » أو « عين زينب » ، وهى منسوبة إلى الزباء ملكة تدمر المشهورة فى التاريخ ، وهى تعرف عند العرب بزينب وعند الإفرنج بزنوبيا . . .

فمدت أصبعها وأخذت تشير إلى الخريطة التى رسمتها وقالت : كأنه هنالك يقوم الفرات ، وكأن بالموصل هنا ، وبين مجرى الفرات والدجلة تقوم جبال سنجار . . . وسألتنى هل لك بعض المعلومات عن جبال سنجار ؟ فأجبتها بالنفى .

وقالت لى : يا زميلى هل لك أن تأوى إلى قريتك مطمئناً مدة شهر ، وفى خلالها سيصلك خبرى ؟

ووقفنا وجهاً إلى وجه ، كل منا مؤمن بإخلاص الآخر ،

وكنت مفتوناً بها وبجمالها حين قلت : إنى أحب أن أراك وأن أجلس إليك وأتحدث :

ومدت زيلى يدها وتناولت بطاقتى ووضعتها فى حقيبتها وقالت : إن أعمالى تستلزم رؤيتى لك ومحادثتى لك ، فلهذا أطمئنك من جهة رؤيتى !

ومدت يدها وسلمت على ومضت ذاهبة .

° ° °

ولم أنزل بمدينة الإسكندرية التى أخذت منذ ساعتين تلوح لناظرى ، ولم يكن سبب انصرافى عن النزول إليها راجعاً لكونى لا أرغب فى ذلك ، إنما كان لسبب واضح ، وهو أنى لم أر بين النازلين « زيلى » . فقد كان تصور ابتعادى عنها ساعتين دهراً طويلاً لا يمكن الصبر عليه .

وفى الظهيرة ، حيث تهيأنا للغداء ، وبدت « زيلى » فى الصالون ، لاحظت أنه حين قدم لنا السمك قدم لها أصناف أخرى من الطعام . . . وكانت تشرب من خمر الرين . وكنت مشغولا بها كل الوقت أعد عليها كل شىء حتى تنفسها وشهيقها وزفيرها ، وكنت أشعر بالحزن يستولى على كلما ذهب بى الفكر إلى ساعة الوداع حين نتصافح فنفترق ، ولقد تولد بينى وبينها بعد حديثى معها شىء لا أعرف بماذا أعبر

عنه ، كله سر وألغاز يجعلنى لا أعمل على الاتصال بها . . .

وفى الأصيل احتجبت فى مقصورتها . . . ولكنها فى المساء بدت ناصعة البياض ، وكنت فى عجب لظهورها دائماً بالملابس البيضاء ، وكانت قد تزينت بعقد من الزمرد لمع تحت أضواء الباخرة ، وتألق تألق نجوم السماء فى ظلام القبة المحيطة بها ، وكنت أنظر إليها من الركن الذى وقفت فيه نظرات حسرة ، فغداً سنفترق . ومن يعلم فقد لا نتقابل مرة أخرى !

وكانت نظراتى تنتهى إليها وترتد حزينة إلى نفسى فتشعل فى جوانحى النار ، وكانت قد عقصت شعرها على رأسها فى صورة ذكرتنى بنساء بيزنطة وسيدات العصور الوسطى ، وكانت هى بمنظرها هذا المساء تعود بالزمان القهقرى بين جمع من الفتيات بدين فى أحدث الأزياء العالمية ؛ وانساقت أقدامنا فى صخب الجمع حتى تقابلنا فجأة فى أحد الأركان فمسكتنى بيدها ومالت علىّ وقالت : غداً سوف تطأ قدماى للمرة الأولى أرض آسيا ، وهذا الحدث يبعث فى نفسى فورة المشاعر وثورة الوجدان . وبعد أيام قلائل سأكون فى إحدى قرى هذا الشرق أستمع إلى شكوى وآلام شعب صغير مهدد ومضطهد ، وأنت ستكون معى تعاوننى على ترفيه آلام هذا

الشعب . . . غير أنى سأذهب فى عملى متعلقة بمثل أعلى أؤمن به يبعث فى صدرى حرارة العمل والشوق إلى إنجازه ، وأما أنت فلست أدرى ما الذى يجعلك تشاركنى العمل بنفس حرارتى وبعاطفتى .

فأجبتها قائلا : لقد حدثتك من قبل عما يبعث فى نفسى عاطفة مشاركتك العمل ، ولا شك أنى ذلك الراهب « بافنوس » الذى أخرجته « تاييس » من عزلته وبعثت فى نفسه فورة المشاعر وثورة العواطف للعمل . . . أما أنت فتاييس .

وبنظرة حزينة مغمورة كلها بالمشاعر نظرت إلى « زيلى » وقالت : لنتكلم الآن حديث جد . غداً يوم الثلاثاء ٢٦ تشرين الثانى (أكتوبر) من عام ١٩٣٣ ، وفى يوم السبت الأخير من عام ١٩٣٣ ستقابل فى المكان الذى سأحدده لك فى الصحراء . وحينئذ تنال بغيتك من معرفة أمرى ، فهل أنت على استعداد لأن تقابلنى فى ذلك التاريخ فى المكان الذى سأحدده ؟

فأجبتها بالقبول : ومضت فى الصالون برداء السواريه الذى يجر أذياله على الأرض ، مرفوعة الهام بقوامها الممشوق ، وكان شعورى إزاءها عجيباً إذ تصورتها ملكة من ملكات العصور الغابرة ماضية فى صفحة التاريخ تاركة وراءها آثارها ، وبخيالى

تصورت حولها أتباعها من الأشباح ، كل ارتدى الملابس الموشاة بالقصب وانحنى أمام مليكته . وجموع الأميرات الجميلات من حولها يحففن بها كما يحف ببدر السماء نجومها .

٥

قلت لموسى أفندى : استرح أنت أيضاً لأنى سأستلق قليلا، وقد أغفو إغفاءة قصيرة .

وموسى أفندى هذا شركسى ووكيل قريتى التى أمتلكها .

ومد يده بمسبحته الطويلة ووضعها فى جيب ردائه الأسود الذى يستر كل جسمه حتى أخمص قدميه ، ومضى فى سبيله .

وكنت بمنزلى فى قريتى ، غير أن هذا المنزل كان قد أعملت فيه يد التعمير بناء على أوامرى التى أرسلتها من باريس قبل أن أرحل ، فبدا للنظر جديداً منظماً ، وكان مدخله عن طريق سلم صغير جانبى يؤدى إلى ردهة تتفرع عنها حجرتان . هذا هو منزلى الذى يقوم فوق دائرة الوكيل موسى أفندى ، ولكن ما أطلق عليه لفظ القرية ليس فيه شجرة واحدة ولا مجرى ماء واحد ، ولا حديقة من الورد ولا عريشة يستظل بها الإنسان

من الهجير . وكل ما يمكن أن يقال عن هذه القرية أنها عبارة عن بضع مئين من المساكين القائمة فى ساحة تمتد مع البصر إلى ما لا يدرك له حد ، خالية من كل معالم الحياة ، ولولا أن الشمس تشرق فى الشتاء علينا لكان الجو لا يحتمل لبرودته ، أما فى الصيف فالنهار خانق والليل مفزع ، ونظراً لأن قريتنا تقع فى الطريق بين تدمر وحمص فإن العمال الذين يعملون فى الطريق والمسافرين والقوات العسكرية تأوى إليها بسياراتها على اعتبار أنها مرحلة أساسية ، فإذا ما مضت منها بدت لأعيننا جموعها كتضاريس مرتفعة من الساحة المنبسطة أمام بصرنا .

لقد كانت قريتنا « عين الزباء » نقطة عسكرية أيام كان لتدمر عزتها ومجدها ، وكان للدولة الرومانية سطوتها فى الشرق . ولقد بقيت فى القرية من آثار الماضى بقايا قصر منيف لا تعدى بضعة أعمدة من صخر الجرانيت قائمة تضرب صفحة السماء بروقها ، وبجوارها بئر عميقة غزيرة الماء ، واسم القرية مشتق من هذه العين لأنها مصدر الحياة الوحيد فيها .

لقد كنت فى عيشى أستنشق هواء الماضى حيث كان للزباء شأن فى التاريخ فى هذه البقاع ، فهى التى خلقت لهذه القرية وجوداً على صفحة الحياة حين حفرت هذه البئر فقامت القرية حولها ، ولقد مرت مدنيات على هذه الساحة ، أذكر

بخيالى منها مدنية آشور والحيثيين وفراعنة مصر والفرس وأخيراً الرومان ثم العرب فالأتراك فالفرنسيين . ومع هذا كله فالقرية قائمة تعيش على هذه البئر ومنها يستمد الغزاة والفاتحون لأنفسهم الماء فى الساحة التى تمتد من حمص إلى تدمر . ولقد ذهبت بمخيلتى يوماً أتصور جموع الجيوش التى مرت فى هذه القرية وكلها تحنى هامها أمام البئر حيث تروى ظمأها ، لقد ذهب الجميع فى طيات التاريخ وسيذهب غداً ما سيأتى به المستقبل وتبقى البئر وحدها أبد الدهر ، تذكر الإنسان بالزباء فى كل جرعة يشربها .

لقد كنت أذكر فى كل جرعة ماء الزباء ، واذكر مع الزباء « زيلى » ، وكنت أفكر فيهما بدون انقطاع ، ولست أدرى ما هى الأسباب التى تقرن فى ذهنى هاتين المرأتين ؟ ربما أعرف السبب ، ولكنى أحاول التعامى عنه لرغبة أو باعث فى النفس . لست أدرى . وربما كانت ناحية الأسرار التى تجلل اسم الزباء هى التى تقرنها بزيلى المحجبة بالألغاز مثلها . وكنت أذهب بمخيلتى بعيداً فأتصور أن روح الزباء عادت إلى الحياة فتقمصت جسد « زيلى » ، وأنى سأكون قريباً فى مشهد تاريخى حيث يرتفع فى جوف الصحراء عرش لزيلى كما ارتفع من صحراء تدمر عرش الزباء . وكنت أتصور « زيلى »

بمخيلتى على عرشها وتاجها من الصلب كفرسان القرون الخالية ، مرتدية الدروع وفى يدها المزراق .

وكنت أتصورها بمخيلتى تطوف بين الأنقاض القائمة فى تدمر حين كنت قد أخذت جلستى تحت آثار القصر المنيف الذى عدا عليه الزمان فى قريتى المتواضعة القائمة فى طريق تدمر ، وكنت أرنو ببصرى وأتمثلها أمامى بملابس الفرسان . . . وظللت عشرين يوماً على هذا المنوال .

وكان وكيل القرية موسى أفندى يظن أن نفسى عافت سكون القرية فيرغبنى فى أن أذهب لحمص أو أن أزور آثار تدمر أو أخرج للصيد . وكان يغرينى بأن أشاهد رقصات الفرنسيات وبنات يعرب فى مدينة حلب ، وهكذا كانت تمضى أيام حياتى فى « عين الزباء » ! ثم ما لبث صاحبنا أن أخذ يحدثنى عن البذور وأسعار الغلال وما يمكن أن نفعله هذا العام لاستغلال الأرض ، غير أنه لاحظ أخيراً انصرافى عن حديثه ، فانسحب بظرف الشراكسة ، ولم يعد يطرق هذه المواضيع ، ولم يكن يأتى إلى جانبى إلا حين أناديه .

وكنت أعيش منفرداً فى هدوء وسكينة وأجلس الساعات الطوال أغرق فى تأملاتى بين أنقاض القصر المنيف القائم على مقربة من قريتنا . وكنت فى جلستى هذه ، حيث يلفح

وجهى الهواء الساخن وتشوى رأسى الشمس المشتعلة ناراً فى الصحراء ، أحس بغمرة تستولى على فأجد ما يبرد حرارة الجو ويجفف أشعة الشمس المحرقة . نعم ، كنت أحس بغمرة حين كنت أتمتم على غير وعى باسم « زيلى » !

لقد سيطرت الزباء باسمها على هذه الأصقاع نيفاً وألفاً وستمائة وستين عاماً ! وكانت تبدو لى مقترنة باسم « زيلى » التى عرفتها ولاقيتها على ظهر السفين والتى لم يمض على فراقها لى أكثر من عشرين يوماً وإن أحسستها كعشرين حولا ! وكنت فى جلستى تحت الأنقاض لا أجد ما يشغل ذهنى غير التفكير فى الزباء وزيلى !

وكنت آوى إلى حجرتى وتحت أضواء المصباح الذى ينيرها كنت أرمق الصحراء التى تمتد مع امتداد البصر وتتسع أمام نظرى إلى حيث لا نهاية ، وكنت أحس وأشعر بالفراغ إزاءها كما يحس الإنسان إزاء ميت !

ولهذا كنت أعمد إلى إطفاء المصباح والاكتفاء بشمعة يترجرج ضوءها فى ظلام الحجرة فأبغى هدوء النفس وسكينة المشاعر فى ظلالها المتموجة ، وكنت أغرق فى تصوراتى وأقيس زيلى بالزباء ، وأقضى الأيام هكذا فى صورة واحدة من الخيال والتصور ، حتى انتهت بى الأيام إلى اليوم السابع والعشرين من

كانون الأول (ديسمبر) ، وكان أمامى أربعة أيام ليأتى خبر « زيلى » وموعد اللقاء . . . وكنت واثقاً أنها ستطلبنى لحاجة لها عندى مجهولة الموضوع والأغراض . لأنها حين ودعتنى فى ميناء بيروت كانت وكأنها عارفة بما يجول بخاطرى عنها فقالت : امح يا صاحبى من مخيلتك ما يجول بذهنك حولى من الأفكار السوداء ، فلست أعمل لحساب أحد ولا لحساب أية دولة ، ولست عدوة شعبكم ودولتكم بل إنى صديقة لكم وربما مددت يدى أرجو مساعدتكم أنتم الأتراك .

وكان كلامها هذا باعث الطمأنينة والقناعة فى نفسى من جهتها ومن جهة أغراضها . وكنت فى قناعتى أنتظرها ، رامقاً ذلك الطريق الذى يؤدى إلى القرية . وكانت القوافل تبدو لنظرى من بعيد وهى آخذة طريقها فى زاوية تمر بجوار القرية كأفعوان ينساب فى الوادى الممتد ، وكان الجو المقبض المظلم قد تفتح بعد أن أمطرت السماء وابلا مدراراً أياماً ، والطريق الذى يمتد وراء الأطلال إلى حمص قد اخضوضر بحشيش الأرض وبنبتها الزاهر ، وشعرت لأول مرة بأن قرية عين الزباء تقع على حد فاصل بين موات الصحراء وحياة العمران . وكانت ليالىّ فى القرية مقبضة ، فقد كانت ليالى إنسان مدنى فى عالم موحش . والشمس فى جوف الصحراء

كأنها قيدت ، ولهذا كان منظرها مقبضاً بعكس ما كانت تبدو فى ما بين أرز لبنان أو فراديس سورية الطليقة . وكنت أذهب بخيالى إلى سورية ولبنان وأضوائهما الصناعية فى الليل ، حيث تتلألأ مدائنهما كنجوم فى الظلام الذى يلقى ستائره عليها ، وكنت أرنو من نافذة حجرتى إلى القرية فى الليل فلا يبدو أمامى غير بضع مساكن حقيرة ، وحانوت بدال هو المركز الوحيد لتبادل وسائل العيش هنالك .

وذات ليلة أحسست ميلا للشراب ، فأشعلت النار فى المدفأة وأطفأت المصباح واستلقيت على فروة الغزال فى جانب من الحجرة . وتحولت الأضواء التى بزجاجة الخمر إلى رأسى فسرت فى دمى فأشعلت فىّ النار . . . وبعثت فىّ الخمرة شعوراً عجيباً فى أن « زيلى » قد سخرت منى وكذبت على فى وعدها . وفجأة ذهبت بخيالى إليها وأخذت أتساءل أين هى الآن ؟ وبمن هى مشغولة ؟ وفى أى بقعة فى جوف الصحراء ؟

ورنوت ببصرى إلى الخارج من النافذة . . . وغفوت ، وما استيقظت إلا والشمس قد أشرقت عن يوم جديد ، فقمت وفى نيتى أن أقذف بنفسى فى جوف الصحراء أبحث عنها وأسأل حتى أظفر بلقائها . ولكن كما كنت أفعل كل يوم ذهبت إلى أطلال القرية وجلست أرنو إلى الطريق أنتظر ورود خبرها !

• • •

غداً آخر الشهر . . . .

ولمقابلة كل الاحتمالات أرسلت موسى أفندى إلى المدينة يستجمع لى ما ينقص الدار ، فربما تأتينى هى بدلا من أن يأتينى خبرها المجرد .

واليوم آخر الشهر ! . . .

وعلى غير ما كنت أظن شعرت بأن أعصابى ساكنة ونفسى مطمئنة .

جلستُ أقص أظافرى وأزيل شعر ذقنى وأتزين . وأخيراً مضيت إلى الأطلال ، وبدت لى من بعيد سيارة . . . من طريق حمص وخلفها عربة « كميون » . . . وكما ظهرت السيارة وخلفها عربة « الكميون » فى الأفق ، فى المسالك التى تصل حمص بتدمر اختفت فى الأفق . . . فأويت إلى الدار حيث عزمت على تناول وجبة الغداء وكنت مشغولا بفتح علبة الأناناس . . . وفجأة دخل علىّ موسى أفندى وقال إن السيارة التى بدت فى أفق القرية أخذت طريقها إلى هنا .

وأحسست بشعور طاغ على وفقدت إرادتى . غير أنى ذهبت أنظر متجلداً من النافذة إلى السيارة التى تقترب من القرية وانتهيت بأنظارى إليها حين وقفت فى الساحة ، وأسرعت

الخطا أجرى وكأنى أخطف السلالم فى النزول خطفاً ، سائلا نفسى : من الذى بالسيارة ؟ ومن الذى سألقاه ؟ . . . وفجأة كنت أمام السيارة حين فتح بابها ونزل منها . . . لحية طويلة ورداء أسود ، فتسمرت مكانى . غير أنه ابتسم لى فاضطررت أن أبتسم وأشار إلى أن آخذ طريقى إلى السيارة قائلا : تفضل . إن زيلى تنتظرك فى تدمر .

٦

كان الكاهن شمعون جالساً بجانبى فى شىء كثير من التحفظ والاحترام . والكاهن شمعون هو ذلك الرجل الذى تحدثت عنه كثيراً حين كان فى صحبة « زيلى » على الباخرة ، وكان هذه المرة قد وضع على رأسه العقال وكوفية سوداء . . . وكانت السيارة تمضى بنا خبباً فى جوف الصحراء ، وكانت بى الرغبة أن أسأل رفيقى فى هذا السفر عن أشياء كثيرة ، تتعلق بشخص « زيلى » وأغراضها ، ولكنى كنت أحجم حين كنت أدقق النظر فى ملامح رفيق السفر فلا أرى فيها ما يشجعنى على السؤال .

كانت السيارة تمضى بنا فى طريق تدمر ، وكان يبدو لنظرنا على بعد بضع مئين من الياردات عين ماء وبضع نخيل ، وعلى مقربة منها بعض أشجار الرمان يتدلى ثمارها من غصونها . ووراء هذه العين والنخيل والرمان قرية متواضعة ، بدت بقربها وكأنها قائمة على حفافى عين الماء ، بل إنه ليغريك الخيال أن تتصورها قائمة فى وسط العين ، جزيرة وسط الماء .

وأخذت القرية وعين الماء والأشجار والنخيل والرمان والكروم تقترب منا حتى لقد شعرنا أن لن تنقضى بضع ثوان حتى نكون داخل القرية ، غارقين فى العين . واستولى علينا شعور الخطر ، ولكن فجأة بدا الأفق لناظرنا ممتداً إلى ما لا نهاية له ، وغابت القرية بمرائيها من أمام ناظرنا كحلم جميل . هذا هو السراب !

° ° °

وطالعت فى شىء من الصعوبة على الأضواء الأخيرة التى تركتها الشمس وراءها بعد الغروب ما خط على لوحة سوداء تعترض جانب الطريق : « طريق بالميرا — الكيلومتر ١٦ » .

وكانت السيارة قد أضاءت مصابيحها . وهى ترتقى بنا نجداً ؛ وفجأة تألقت أمامنا الأضواء ؛ وبدت فى ظلال غابة من النخيل لناظرنا مجموعة من الأقواس والطاقات والأبراج .

وكانت أضواء السيارة أينما وقعت تكشف لنا مشاهد ورسوماً أقامها الخيال فى الظلام ، تتألق تحت أضواء السيارة تألق قطرات الماء فى جو ممطر انكشفت سماؤه عن شمس أرسلت أشعها فتحللت إلى الأطياف الأولى . وأخذت السيارة طريقها فى هذا الجو الساحر حتى انتهت إلى ساحة منكشفة للبصر تقوم فيها بناية من دور واحد . وقفت السيارة أمام هذه البناية ، واستقبلنا على مدخل الدار خادم ارتدى « السموكنج » الأبيض .

وخطوت خطوات قليلة ، وارتقيت بضع درجات ، وإذا بنفسى فى رحاب الفندق . وأشار لى الكاهن شمعون أن أجلس على إحدى الأرائك ، وكان فى إشارته معنى التريث والانتظار حتى يبلغ سيدته خبر قدومى . واختفى الكاهن من أمامى فى داخل الفندق . وكنت فى جلستى لا أحس بأى شعور يغالب أمرى ولا بأى فورة فى الإحساس .

وبدا فى إحدى الجنبات الكاهن وهو يشير لى أن أتبعه . ومضيت ، هو أمامى وأنا خلفه ، فى وقار طبيعى مستول على كلينا ، يذكرنى بالتشريفات فى العصور الخوالى ، حتى انتهى إلى مقصورة فطرق بابها ، وبناء على الجواب الذى انتهى إليه أفسح لى الطريق ، فإذا « زيلى » تبتسم وقد وقفت تنتظرنى .

وتجالدت بكل ما فىّ من قوة حتى لا أرتمى على أقدامها .

وألقت إلى « زيلى » كلامها : إن الروح الإنسانية لا تموت وإنها خالدة ، وإن ساحة فعاليتها ملايين الخلايا التى لا عداد لشكلها .

ومضت فى حديثها تكمل كلامها متحدثة إلىّ باللغة الفرنسية : لن أتحدث إليك عن نظريات ما وراء الحياة والنفس كما عرفها البراهمة والبوذيون وفراعنة مصر ، كما أنى لن أتحدث إليك عن آراء فيثاغور وأفلاطون ، لأن ما قالوه يعتبر اليوم من المسائل الكلاسيكية ، وإنما أسوق لك آراء العلماء المعاصرين الذين يعتقدون عن علم بأن الروح خالدة لا تموت ، وأنها تتقمص مختلف الصور ، فهذا فوريه « Fourier » وبيير ليرو « Pierre Leroux » وجـــان رينود « Jean Reynaud » والفيلسوف الشاعر موريس ماترلنك « Maurice Maeterlinck » من المؤمنين ببقاء الروح . وكلمة مبحث وراء النفس « Meta Poistque » من إيجاد العالم الفرنسى البروفسور ريشيه « Richet » ، وهذا المبحث يؤمن بصحته الملايين فى العالم ، وأصبح موضوعاً شاغلا لنفر من أجلة العلماء وهذا المبحث استقل عن دائرة الروحانيات « Soritualism » فى العصور الأخيرة تحت جهود هؤلاء العلماء .

وتحت إحساس « زيلى » باستغراقى فى موضوع حديثها ابتسمت لى وحاولت أن تخفف من جدية الموضوع فقالت : لقد قال لى مترلنك منذ شهرين حين تقابلنا فى بلاج أوستند : « يجب ألا ننسى هذه الصلة التى تقوم بين أرواحنا وأجسادنا ونحن أحياء ، وكيف تؤثر أرواحنا على أبداننا ، ومن حيث نحن نسج من الأموات فسيأتى الوقت الذى تستجوب هذه الأرواح التى فى دخيلتنا ، ووقتئذ سنعرف حقيقة الإنسان الداخلية » .

° ° °

كنا نتجاذب هذا الحديث فى صالون الفندق حيث جلست إلى « زيلى » وحدها حول مائدة زينت فى شيء كثير من الكلفة ، وكان فى زهرية فضية بعض الأزهار التى لا أشك فى أنها استحضرت خصيصاً من لبنان ، وقد مدت كؤوس الشراب أمامنا على المائدة ، ووضعت بعض الثمار الطازجة فى الثلج . وهكذا كنت أنا وزيلى على المائدة جنباً إلى جنب ننتظر الدقائق الأخيرة من دورة كرتنا الأرضية لنتم عاماً ولنستقبل معاً عاماً جديداً . . . لست أدرى ماذا يخبئ لنا فى طياته !

وكانت زيلى تحدثنى وتقول : إن مترلنك اليوم يؤمن ببقاء الأرواح ، ولكن الأرواح الباقية حسب اعتقاده تعيش

فى فضاء معتم فى حالة أشبه بحالة السكارى ، وهى فى حياتها أشبه بجموع الأسماك حين تدور من حول الطعم فى دورانها من حولنا نحن أنصاف الأحياء والأموات . والتجارب الأخيرة فى الاتصال بالأرواح قد أثبتت من أجوبة الأرواح مقدار ما هى عليه من تردد وعىّ وبلادة فهم وسقامة تفكير وقصور ذكاء . نعم ، أثبتت التجارب مقدار ما عليه الأرواح من تعب وملال وسأم فى حياتها المجردة . ولسنا ندرى أتبدأ هذه الأرواح حياة جديدة أم تأخذ طريقها للاندثار ؟ ويخيل للبعض أن الأرواح تغل ذاكرتنا فى الحياة وأنها بقايا مشتتة من إحساساتنا فى الدنيا ! ونحن نلمس بأنفسنا حالات الأرواح وهى أشبه ما تكون بحالة طفل صغير فتح عينيه فجأة فى نور قوى غلاب ، فكان لذلك رجع فى عينيه فلم يبصر شيئاً من حوله ، ولست أدرى أنخطو جميعاً خطواتنا لمثل هذه الحياة ؟

إنى على ما أرى وأعتقد أن الأرواح تنتقل من قالب حىّ إلى آخر ، وتقضى حيناً فى كل قالب من هذه القوالب الحية . وحياتها الدائمة فى التنقل من قالب لآخر . وفى هذا وحده أجد أصح حل لمشكلة الروح الإنسانية ، وإنى إن كنت أعتقد بعلم ما وراء النفس البشرية فذلك لاتفاقها من جهة مع أوليات العلم ، ولاتفاقها من جهة أخرى مع أسس عقيدتى الدينية . . .

وأظن أنه ليس هنالك ما يجعلنى أخفى عليك شيئاً يجب ألاّ يخفى ، وذلك أنى « ابنة يزيد » .

وفجأة تركتُ قدح الشراب الذى كان فى يدى بعد أن كنت قد قربته من شفتى . . . . . ولم أحس وقتئذ بما انطبع على وجهى من نظرات الدهشة وقلت لها : أتعنين أنك يزيدية ؟ وأنك تنتسبين للجماعة ؟

فأجابت : نعم ، إننى يزيدية ولكنى فى الوقت نفسه ابنة يزيد التى تنتسب له تلك الجماعة . ولان صوتها وقالت : وإنى قائمة الآن بتخليص هذه الجماعة من قبل أبى الذى فى السماء !

ثم ذهبت فى تصوراتها ، وذهبت أنا فى تأملاتى ، وخيم علينا السكون حتى كنت أسمع دقات الساعة التى فى جيبى .

وفجأة قطعت هى حبل السكون حين جمعت أفكارها وألقت علىّ هذا السؤال : ما هى معلوماتك عن اليزيدية ؟

فكانت إجابتى : تكاد تكون لا شىء . . . أو بعض الشىء من باب التجوز .

فقالت : أليست أشياء سيئة جدًّا ؟ كالاعتقاد بأن الشيطان هو الله ، وعبادة الطاووس ، واجتماع مئين من الرجال والنساء ، وإطفاء الأنوار ، وارتكاب الفحشاء . . .

فكانت إجابتى : نعم بعض أشياء من هذا القبيل . . .

فقالت : الحال أننا نؤمن برب للعالمين ، واحد حق ، أوجد الدنيا والعالمين بقدرته وإرادته تماماً كما يعتقد المسلمون والنصارى واليهود .

وكنت أنا فى دهشة من سرعة تحول «زيلى» الأرجنتينية إلى « زليخا » اليزيدية أكثر من دهشتى من أمر عقائد اليزيدية . وفجأة سألتها : على ما أعرف أن مركز العقيدة اليزيدية هو الشرق القريب ، ولكنك أنت تأتين إلى هذا الشرق من أقصى بقعة فى الأرض . ولست أدرى أهذا أيضاً حادثة من وراء عالم النفس أو نتيجة لمثل هذه الحادثة ؟

فكانت إجابتها على هذا التعريض فى كلامى : إذن ليكن حديثى معك أولاً عنى أنا .

وأومأت إلى أن أملأ لها قدحها بخمر الشمبانيا فصدعت لإيماءتها وملأت قدحينا بالشمبانيا ، وفى نفس واحد تجرعنا ما فيهما ، ثم رنوت إليها واتكأت برأسى على كفى وقد استندت برسغى إلى المائدة . فلما رأت ما أنا عليه من استعداد لتلقى كلامها قالت : إن سنة ١٨٩٢ هى عام الدم والنار لنا معشر اليزيديين ، وإن كنا قبل ذلك أيضاً تعرضنا لكثير من الاضطهادات ، فلقد كان تعدادنا فى القرن الثامن عشر يربو

على خمسين ألفاً ومائتى ألف ، غير أن هذا العدد كان آخذاً
فى التناقص أمام ضغط جموع الأكراد والأتراك . فإن جيوش
الأتراك زحفت عام ١٨٢٨ بقيادة ملك أحمد باشا لإخماد ثورة
الأكراد فنكلت بنا فى طريقها ودمرت قرانا . ثم ثار الأكراد
على الأتراك وزحفوا بقيادة محمد الراوندى ودمروا بلادنا وذبحوا
رجالنا دون أن يعملوا حساباً لصلة الدم التى بيننا ، وساروا فى
حملتهم حتى أرض سنجار ، ولم يتركوا بلادنا إلا بعد أن تركوا
صفحة سوداء فى تاريخنا المظلم . ثم كان عام ١٨٣٥ فأرسل
الباب العالى فى تركيا قواته فاستعانت بنا لكسر شوكة الأكراد
غير أن هذا كان لحين ، فى خلال أعوام ١٨٤٣ — ١٨٤٧
كان للكرد ثورات ، وتعرضنا نحن والنساطرة لهجومهم ولست
أريد أن أتحدث إليك عن تاريخنا الذى اصطبغ بالدماء ،
إنما كل ما أرغب فيه أن أضع أمام عينيك صورة من المصائب
التى تنزل بشعبى المسالم من الشعوب المجاورة . وكل ما يمكننى
أن أقوله إن تاريخنا عبارة عن ضربات متواصلة تنزل على
رؤوسنا . وكانت آخر هذه الضربات تلك التى ضربها عمر
باشا الذى رغب أن يقضى على اليزيديين نهائياً ويزيلهم من
عالم الوجود . لست أحب أن أخوض لك فى المذابح التى
قامت فى كل بلادنا وكنا نحن ضحيتها ، وأنت نفسك لمست

بيدك قوة المذابح التى تقوم ضد الأقليات على ما رأيت فى حروب الاستقلال وفى مذابح الأرمن ، وخلاصة القول أن عمر باشا تمكن أن ينزل بعددنا إلى حوالى الخمسين ألفاً . أما المائتا ألف فجعلهم فى بطون الثرى فى ذلك العام المشؤوم . واضطر نحو خمسة عشر ألفاً منا أن يعتنق الإسلام أو قل يتظاهر بذلك ، ومثل هذا العدد اعتنق المسيحية أو تظاهر بها ، وكان من الأخيرين أو قل على رأسهم والدى الأمير على .

ولم يكن والدى الأمير على من الذين تظاهروا باعتناق المسيحية فقط ، إنما انغمر فى جمع من المهاجرين وركب البحر إلى الأرجنتين . وكان فى ذلك الوقت فى الثانية والعشرين من سنى حياته . كان طويل القامة ، عظيم الهيكل ، صاحب إرادة قوية وذكاء خاطف ، والحظ هو وحده الذى وضعه فى مكانته . وجعله ينزح إلى ساحة يمكن أن يعمل فيها فى دائرة حدود تعاليم دينه ، وأعنى بذلك الاشتغال بالزراعة أو تربية الحيوانات ، وهما الصناعتان اللتان تصرح بهما الديانة اليزيدية ، وليحمل عنا ما نزل بنا من مصائب اضطرتنا إلى خروجنا على تعاليم ديننا ومحاولتنا التكسب عن غير طريق الزراعة أو رعى الحيوان المستأنس . وهذا اعتقاد راسخ عند كثيرين من أبناء عشيرتنا .

ولقد غرق والدى فى عمله فى البمباس ، وكان من نسل

شعب يجرى فى عروقه الاشتغال بالزراعة ورعى الحيوان .
لهذا سرعان ما نجح فى دائرة عمله ، لا سيما أنه كان يشتغل مؤمناً أن عمله إيفاء لبعض واجباته الدينية ؛ وهكذا تضافر عنده العزم والإيمان فكان نجاحه باهراً . وأصبح من كبار الملاك المزارعين ، وكانت له المراعى التى تمتد مع امتداد البصر ، حيث يربى قطعاناً من الغنم غير محصورة العدد ، وكانت هذه القطعان فى مراعيه أشبه بأمواج البحر التى تصطخب ، وكانت أصوافها تلمع فى الضوء كالزبد الذى يعلو أمواج البحر ، وكان له بجانب قطعان الغنم حظائر تربى فيها الخيول والأبقار والجاموس . ولا أحب أن أتوسع فى الكلام عن دائرة أعماله فى تربية الحيوانات ، وإنما أحب أن أقول : إنه أصبح فى أواخر أيامه ، أى منذ ثلاث سنوات ، من أبرز أعضاء مجلس النواب فى الأرجنتين .

هذا هو أبى الذى كان يعرف فى الأرجنتين باسم السنيور ألفونس ديلا يزدى !

ولم يترك السنيور ألفونس وريثاً غير فتاة واحدة كانت تتلقى العلم فى الجامعة ، غير أنها تعلمت اللغة الكردية من والدتها التى لم يستقم لسانها على التكلم بالإسبانية فبقيت تتكلم بالكردية فى بلاد الغربة . ومن والدتها ومن خدمها نجحت

فى أن تتفوق فى معرفة اللغة الكردية .

وأنت تعرف أن الأكراد يصغرون الأسماء التى يأخذونها من العرب فيصبح اسم فاطمة فى لغتهم فاطو كما يتحول اسم عائشة إلى عاشو وزينب إلى اسم زينو . وكان اسم فتاتنا زليخا فكان تصغيرها سبباً فى أن تنطق زيلو ، ولكن هذا الاسم أصبح « زيلى » انسياقاً مع الروح الإسبانية .

وأنت ترى أن ما أوجب لك الحيرة ، ليس سوى نتيجة طبيعية لما جرى من الشرق الأدنى إلى أقصى عالم الغرب ، ولا شك أن ما كان لى من المركز السياسى والمالى فى الأرجنتين جعل لى موقعاً ممتازاً بين المهاجرين السوريين واللبنانيين الذين يذهبون إلى أمريكا ، ويستقرون فيها ويكونون لأنفسهم ثروات ضخمة وأسماء تطير فى عالم المال .

° ° °

وقامت زيلى من مكانها وأزاحت الستارة ورفعت زجاج النافذة فانكشف لبصرى ما وراءها ، وسرى الهواء فى الحجرة محملاً بنسيم الليل العليل وأريج الزهور البرية ، وكان كل ما حولنا صامتاً ، وكانت زيلى تنظر من النافذة إلى الخارج وفى الوقت نفسه تقول لى بصوت متهدج يحمل فى طياته علامات التأثر : يا صاحبى ! هنالك أسطورة تتنقل على أفواه الأعراب

فى باديتهم بين الخيام ، وملخصها أن لبؤة تظهر فى بعض الليالى بين الخرائب ، وتدور بين منعرجاتها ، كأنها تبحث عن شىء وأخيراً تزأر زئيراً كله نواح ، وتغيب بين الخرائب من حيث أتت . والأسطورة تقول : إن هذه اللبؤة هى روح الزباء . . . تقوم تتنقل بين أنقاض مدينتها ، وحينما ترى ما أصبحت عليه تتحسر على ماضيها فتصرخ هذه الصرخات التى تحمل فى طياتها الألم ، والتى هى مظهر مأتمها التاريخى على مدينتها التالدة ! . . . هذه الأسطورة التى يؤمن بها كل الأعراب فى هذه المنطقة ، هى عندى أفصح وأصدق صورة لعقيدة التناسخ .

وبدون أن تنظر إلى وجهى مدت يدها إلى كمثرى على المائدة وتناولتها وأخذت فى تقشيرها . وسألتها : هل عقيدتك وثروتك تضعان على عاتقك بعض الواجبات نحو أبناء العشيرة ؟

فكانت إجابتها بالإيجاب.

فسألتها : وهل قيامك بهذه الواجبات نحو العشيرة يستلزم وجودى كما تشعريننى ؟ وهل لوجودى بجانبك فائدة ؟

فقالت : هذا ممكن جداً !

فقلت لها : أنا شخص تركى ، تركت بلادى حيث

ينزل أبناء عنصرى الأتراك ، فهل يمكن بالرغم عن هذا ، أن أساعدك فى أغراضك بدون أن يكون فى ذلك أى ضرر لبلادى ؟

فقالت : نعم .

وكانت لا تزال مشغولة بكمثراها ، وكنت أحس ما يختلج فى صدرها من الإحساسات مع زفيرها وشهيقها . فمددت يدى إليها ، واحتويت يدها بين يدى وخاطبتها قائلا : إنى أقدس الصدفة التى جعلتنى فى طريقك والتى ستمكننى من أن أكون سبباً لخدمة أغراضك ؟

وكنت أحدثها بهذا الحديث وعيناى تبحثان عن عينيها ، وأخيراً وجدتهما وقد تشربتا بالأحلام ، وأحسست مقدار الإحساسات والمشاعر التى تختلج فى صدر هذه الغادة وأبصرت عينيها وقد اتقدتا نوراً وناراً . وفجأة رأيت هذه العيون تتبلل وتجتمع من هذا البلل حبة من اللؤلؤ أخذت تتألق فى طرف عينها فى لون الكهرمان ثم سالت . . .

وكانت الساعة الثانية عشرة . . .

رفعنا أقداح الشراب وفى جرعة واحدة أفرغناها فى جوفنا .

والآن ونحن فى عزلة عن العالم المتمدن ، وعلى مقربة من

صحراء تدمر ، لم ننس عوائدنا المدنية فى الاحتفال بليلة رأس السنة . وكانت الطبيعة تشاركنا الاحتفال بما ترسله من الأطياف من قلب الصحراء . وكنت أنا غارقاً فى مشاعرى الذاتية وإحساساتى أشاهد من قرب شريكتى فى الاحتفال بليلة رأس السنة، زيلى الإسبانية التى تحولت لزليخا ابنة يزيد، التى بعثت فى نفسى أملاً جديداً ومشاعر جديدة ، بها استهللت عاماً وودعت عاماً يطويه الزمن فى طياته .

٧

ما استيقظت فى اليوم التالى حتى أخبرنى « الجرسون » بأن الأميرة تنتظرنى فى معبد « الشمس » .

وبرغم أن معبد « تدمر » قد عدا عليه الزمن فأصبح خراباً ، إلا أنه لا يزال يحمل ما يورث الذكريات التى تورث الإنسان الشعور بتلك الفخامة التى ذهبت والماضى الذى اندرس . . .

وكانت خرائب « بالميرا » الباقية تحت أضواء الشمس

الأولى تبدو لناظرى حاملة فى طياتها كل ذلك الماضى المحتشم . لقد كانت أضواء النهار تسبغ عليها جواً كله شعور بالعظمة . وكانت بلدة الزباء مجموعة من الأعمدة المرمرية، أبرز بناء فيها معبد الشمس .

كنت أسير فى شوارع المدينة ، التى لا تجد فيها فى سيرك ما تستظل فى فيئه ، فى طريق عفر يثور فى وجهك ترابه ، فى طريقى إلى معبد الشمس . وحين انتهيت إلى المعبد وجدت زليخا مع الشيخ شمعون على « تراس » المعبد العلوى . وكان الشيخ شمعون الكاهن اليزيدى غارقاً فى إحساساته ومشاعره ، ومن هنا لم يقم حين رآنى ولم يعمد إلى محادثتى . كان صامتاً لا ينظر يمنة ولا يسرة ، فى حالة استغراق تام . وبدا لى هذا الكاهن الذى كنت أظنه مسنّاً للحيته ، أصغر منى بكثير . إنه لا يبلغ من العمر الأربعين . وقد بدا لى فى بنيته قويّاً ، عضلاته بارزة كأنها عضلات فهد أو نمر .

واستقبلتنى زليخا قائلة : إننا الآن فى معبد الشمس ، ولقد كان أول شىء لى هذا الصباح أن أبكر بالحضور إلى هذا المكان قبل أن يعلن الشفق عن حضوره ، ووقفت أنتظر شروق الشمس لأقوم نحوها بالطقوس التى تحتمها علىّ عقيدتى .

ووقفت عظمة المعبد وشعورى بالرهبة فيه مانعاً دون أن أسألها : « هل تقومين بطقوس العبادة نحو الشمس عن يقين ؟

لقد كان لى أن أسألها من قبل عن معنى قيامها ببعض طقوس غريبة أمام شروق الشمس حين رأيتها فى الباخرة ، ولكن الحياء غلبنى فلم أتمكن ، والآن تقف رهبة المكان حائلاً دون إلقاء السؤال . ولحظت حالتى هذه، الفتاة وهى فى شبابها الزاخر فنظرت إلىّ طويلاً ، ويظهر أنها حملت ترددى على وجه آخر حتى قالت :

– إن عشيرتنا ، لا تبيح أسرارها خصوصاً فيما يتعلق بشعائرها الدينية ، ولكن هذا القيد من عشيرتنا راجع لمعيشتنا فى جو متعصب متحامل يخشى منه علينا ، ومن هنا لا أرى مانعاً من التحدث إلى شخص من أحرار القرن العشرين عن حقيقة شعائرنا وأسرارها الخفية خصوصاً أنك ستكون صديقنا ومساعدنا الأكبر ولا سيما أن المعلومات التى طلبتها عنك من أنقرة لم تثبت غير صدق فراستى فيك .

ومددت يدى نحوها بسيجارة ، وكانت متكئة إلى الجدار ، وكنت أتأملها وأرجع بذهنى للماضى ، فأرى الزباء فى وقفة لها تماثل وقفتها . ومن الماضى كنت أعود للحاضر

وأتأمل تلك الزهرة اليانعة المتفتحة .

ولقد كنت أحس أن نظرات شمعون تخترقنى ، وإن كنت معتقداً تمام الاعتقاد أنه لا ينظر إلينا . ولكن كان الشعور يغالبنى ، وكنت بنظرتى كأنى ألتهم هذه الفتاة الواقفة أمامى ، والتى كان شبابها الغض وحيويتها الفائضة تشملنى فأستغرق فيها. . . وفجأة انتبهت على قولها : لست أدرى إن كان مناسباً التكلم معك فى هذا المكان . لقد أتيته مع الشيخ شمعون لهذا الغرض . إننى أرغب أن أعمل على استقرار وتحرير عنصرى ، وفى هذا أحب التحدث إليك .

وكانت إجابتى لها : إنى أرحب بحديثك .

فمضت تحدثنى وتقول : لعشيرتنا التى تنزل على حدود تركيا وسوريا والعراق شعبتان فى الخارج : شعبة فى القوقاز وأخرى فى الهند . ومجموع العشيرة يبلغ حوالى الثمانين ألفاً . ومشروعى هو جمع عشيرتنا القاطنة فى سنجار فى أرض مأمونة وإقامة حياة مدنية فيهم .

فكانت إجابتى لها : هذا العمل عظيم !

فمضيت محدثتى فى كلامها قائلة : لقد درست المسألة شهوراً فى الأرجنتين ، وكان أول شىء تناوله تفكيرى ، اختيار البقعة التى أجمع فيها أفراد العشيرة ، ولكن نظراً للصعوبات

التى تقوم فى نقل أبناء العشيرة إلى الأرجنتين صرفت النظر عنها ، ولم تكن القيود وحدها التى وضعتها حكومة الأرجنتين على حركة المهاجرة سبباً فى ذلك ، إنما كان السبب مصاريف نقل العشيرة إلى الأرجنتين . هذا فضلا عن أن إقناع العشيرة بمغادرة سنجار إلى الأرجنتين سيكون من الصعوبة بمكان .

فعلقت على كلامها قائلاً : أليس من الأفضل أن تبقى أكثرية العشيرة فى المكان التى هى فيه ثم تجمع عندها الشعب التى تفرعت منها فى الخارج .

فقالت : ليت ذلك فى الإمكان ؛ ولكن أحوال العراق اليوم لا تجعلنا نطمئن إلى الحياة فى حدوده، هذا والحكومة الإنجليزية تقف موقف المحايد مع هذه الأقلية التى استخدمتها فى مصالحها أيام الحرب يوم أثارتها ضد تركيا . لهذا ترانى لا أميل إلى إبقاء عشيرتى فى عالم مضطرب سيكون فى الغد ميدان مآس اجتماعية ودينية على حدود دولات ثلاث متباينة المشارب .

فإذا تركنا العراق إلى سوريا فمن المحتمل جداً أن يترك الفرنسيون إدارتها لأهل البلاد . هذا شىء طبيعى ، ولكن ذلك سيكون فى البدء مقترناً باضطراب فى الإدارة واختلاف بين سياسة الوطنيين . فسوريا قد تكون مسرحاً لاضطرابات يخشى

منها علينا . إن عشيرتى التى أرجو أن أقيمها على نظام من نظم المستعمرات الصهيونية فى فلسطين ، يخشى على تشكيلاتها إذا قامت فى بلد غير مستقر الأحوال . لأنها تصبح أمام أقل اضطراب فى خطر جسيم . هذا فضلا عن أن مستعمرات الصهيونيين فى فلسطين تنتظر العاقبة نفسها فى المستقبل . والمسألة تتطلب قيام العرب مرة واحدة ضد الصهونيين ! إن عشيرة كعشيرتى لها تقاليدها وطقوسها الدينية التى ينظر لها من جمهور أكثرية أهل الشرق الأدنى على أنها كفر وخروج عن الإسلام ، لا تجعل لنا حياة مستقرة بين أكثرية مسلمى الشرق الأدنى .

فأجبتها عن آرائها قائلا : نحن الأتراك نتمنى لجيراننا ، وكل الأقوام المستعبدة تحت نير الاستعمار ، كل خير ، وخصوصاً لتلك الأجزاء التى انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية ، غير أننا نرى أن مقدرات هذه الشعوب مرتبطة بالحالة الدولية للبحر الأبيض المتوسط .

فعلقت على كلامى قائلة : ولهذا تجدنى لا أرغب فى العمل على استقرار عشيرتى فى هذه البقاع ، حيث تتصادم مصالح الدول العظمى . ولا شك أن الوسيلة الوحيدة التى ستجدها هذه الدول للتداخل هى تشويق الأقليات للثورة ضد الأكثرية ثم التداخل باسم الأقلية لحمايتها . . . فى مثل

هذه البلاد لا أطمئن على مستقبل عشيرتى وأبناء عنصرى .

فهززت رأسى موافقاً ، وابتسمت هى لموافقتى على رأيها .

* * *

نحن الآن نتمشى بين خرائب تدمر ، ونتحدث إلى بعض عن وسائط تحقيق غايات زليخا التى تدور حول فكرة تحرير أبناء عشيرتها . وكنا فى تجوالنا قد اقتربنا من نطاق بهو معبد الشمس ، ذلك المعبد الذى عملت فيه يد التعمير فأرجعته أثراً يحتفظ بقيمته التاريخية . وفى هذا السبيل عملت حكومة الانتداب الفرنسى على هدم الدساكر التى أقامها العربان داخل نطاق المعبد ، وحملتهم بعيداً عنها ، وما لبثت يد العناية أن فعلت فعلها فرفعت أكوام التراب والأنقاض وأصبحت أعمدة المعبد العظيم ظاهرة بعد أن كانت مغمورة تحت تل من الأوساخ والتراب . وكانت صاحبتى تحاول أن تلقى بعض النور على ذهنى من جهة التاريخ اليزيدى . وكانت فكرتها تدور على أساس أن أكثر ولايات تركيا تحتاج إلى سكان مهاجرين يعملون على إصلاح أراضيها واستغلال ثمراتها وخيراتها الزراعية والمعدنية . وهى تستند على مشروع الحكومة التركية فى نقل جموع الأتراك النازلين فى البلقان والبلدان

الخارجة عن نطاق الجمهورية التركية إلى الأناضول ، وتقديم الجمهورية لهم كل التسهيلات للإقامة والعمل ، لتبرر هذه السياسة وتمهد السبيل لفكرة نقل اليزيديين إلى الأناضول . وهى مبدئياً ترغب فى قطعة أرض من أراضى تركيا تقيم عليها مستعمرة يزيدية .

وكان يظهر من كلام محدثتى أن كل آمالها منعقدة على نجاح هذه الفكرة حتى ترى أبناء عشيرتها سعداء مطمئنين فى بلد متمدن كتركيا .

وفجأة مالت زيلى نحوى وقالت : لكم أتمنى أن أنقذ أولاد عشيرتى ، وكم أرغب أن تكون لهم المدارس ذات الحدائق وكم أحن لأن أراهم كلهم فى طراز واحد من اللباس . . . لست أعلق شأناً كبيراً على اللغة وماذا تظن لغتنا ؟ إنها لهجة من الفارسية ، وإنى لأشعر أن مشروعنا لو نجح لقبلت اتخاذ التركية لغة أساسية فى المدارس ، حتى تصبح لغة العشيرة ، فيندمجون فى كيان الشعب التركى .

وجلست أنا وهى على « تراس » الفندق نتناول وجبة الغداء . وكانت زليخا فى نشوتها تحدثنى قائلة : أشعر أنه من اللازم أن أتحدث إليك عن بعض أساطيرنا الطريفة ، وخرافاتنا العجيبة . فمثلا أسطورة الطوفان تأخذ فى عشيرتنا وضعاً يختلف

عن وضعها عند الشعوب الأخرى . ذلك أنها تقرر أن مياه الطوفان لما أخذت فى الانحسار عن الأرض ، واصطدمت سفينة نوح بصخر ناشىء من الثرى ، باتت السفينة ومن فيها فى خطر . وسأل نوح : من ذا الذى يسد الثغرة التى أحدثتها الصدمة بالسفينة ؟

فى ذلك الوقت تقدمت الحية إلى نوح قائلة : أنا . . . ولكن على شرط واحد ، وهو أن تجعل لى حقاً فى ابن آدم أمص دمه . . . وقبل نوح عرض الحية مضطراً وفى نفسه أمر . فلما زال الخطر عن السفينة وأهلها تقدم نوح من الحية وقبض عليها وأشعل ناراً ورماها فيها فاحترقت ، وأخذ رمادها فذراه أمام الريح . ومن رماد الحية تولد البعوض . . . ولهذا تجده يمتص دم الإنسان .

فقلت لها : حسناً يا آنستى ! ولكن لا بد أن عندكم بعض الأساطير التى تدور حول فكرة تناسخ الأرواح .

فأجابتنى قائلة : نعم ! نحن نعتقد أنه بعد وفاة أحدنا والقيام بشعائر دفنه تبقى روحه شريدة تبحث عن مكان تأوى إليه . وتظل فى شرودها تائهة ترف حتى تستقر فى جسد جديد . فمثلا نروى أن أحد مشايخنا الكبار بقيت روحه ترف على وجه بحيرة راكدة بعد موته . فى ذلك الحين كانت ابنته العذراء قد

ذهبت بجرتها إلى شاطئ البحيرة لتملأها ماء ، فلما ملأتها شربت منها جرعة أو جرعتين لتطفئ نار عطشها . وفى خلال تجرعها الماء لبستها روح والدها فحملت ، وظلت تحمل الجنين فى أحشائها تسعة أشهر ، فلما وضعت الوليد كان الأب قد لبس صورة الحفيد !

وهززت رأسى متعجباً ، وقلت : وهل الخمر مباحة عندكم ؟...

فأجابتنى نعم ، وكثير من فلاحى قرانا يجتمعون فى مآدب يشربون فيها الخمر ، غير أن شرب الخمر ليس عادة راسخة من عادات شعائرنا . وشربها لا يتعدى بعض المواسم عند المزارعين من أهل قرانا .

وبدا لناظرنا من بعيد قوة من ركاب الهجان يتقدمون نحونا ، ومرت من أمامنا ، غير أن كل الرؤوس كانت تدار نحونا والعيون ترمق « زيلى » باحترام ، كأنها فصيلة من فصائل الشرف تمر من أمامها تحييها ، وأحسست بالخوف يدب إلى فؤادى ، بدون أن أجد الصلة بين الحلم الذى أنا فيه ومرور القافلة أمامى .

وكأنى أريد أن أستمد من قدح الشراب الذى أمامى القوة على التغلب على هذا الضعف النفسى الطارئ ، فمددت يدى وشربت ما فيها فى جرعة واحدة .

٨

سألني الشيخ شمعون : هل جواز سفرك يبيح لك دخول العراق ؟

وكانت إجابتي له بالنفي . فصمت محدثي هنيهة ثم قال : ومع هذا يمكننا أن نجتاز بك الحدود بكل سهولة !

ومضى إلى حجرة زليخا دون أن يقول شيئاً آخر .

غداً سنمضى إلى جبال سنجار . وسوف يرونني الحياة التى يعيشها اليزيديون فى هذه الجبال . حتى تتولد فى نفسى الطمأنينة ، وأعمل على إقناع إخوانى ومواطنى بفكرة « زليخا » ، وهى أن تقيم مستعمرات فى الأناضول لليزيديين . هذا وزيلى نفسها كانت قد أخذت على الشيخ شمعون شرطاً ألا تقوم تقوم بأية محاولة من أجل عشيرتها قبل أن تدرسهم عن كثب . ومن هنا اتفق السبيل بيننا وإن اختلفت الأغراض والبواعث .

كان السبب الجوهرى فى وعدها أن تقابلنى بعد شهر من نزولنا البر ، هو أن تقوم بجولة فى بلاد العشيرة وتنتهى من هذه الجولة إلى فكرة ، وعلى ضوئها تحدد موقفها معى .

كانت نيتها قد اتجهت إلى أن تودعنى فى تدمر وتعود إلى الأرجنتين فى حالة انصرافها عن غرضها . وهكذا وضحت لى أسباب سعة معلوماتها عن الشرق الأدنى من جهة ، واهتمامها بى من جهة أخرى . فإن ربان الباخرة « ماريت باشا » رسم لها صورة قوية عنى ، ومع هذا أرادت التأكد من صحة المعلومات التى ألقاها إليها ربان الباخرة ، فكتبت إلى الملحق التجارى لحكومة الأرجنتين فى الشرق الأدنى ، يوم أن نزلت بيروت ، تسأله عن كل ما يعرف عنى . وتسلمت منه رداً بعد عشرين يوماً . وكانت وقتئذ فى الموصل . وعلى هذه الأسباب اعتمدت هى بعد شهر من الزمن أن تفاتحنى فى أمر أغراضها وتكشف لى الستر عما يختلج من رغبات فى صدرها . وهكذا كان تكييف الدور الذى قمت به إلى هذه الساعة فى مسرح إقامة الوطن القومى للعشائر الأشورية فى العراق فى وطنى تركيا . وكنت أحس بأننى لا أجد فى نفسى الدافع الكافى للمغامرة فى مشروعها ، وكانت الشكوك تنتابنى وتتقاتل فى نفسى ، ولا تجعل لى مجالا للاقتناع . وكثيراً ما كنت أحاول فى تلك الأيام أن أغالب شعورى وأقول : من يدرى ، فربما ينجح مشروعها إذا رأيت الأشوريين ودرستهم عن كثب ، وقمت بمحاولة فى نطاق أغراضها .

ولكن لم تكن هذه المغالبة إلا نتيجة لوجودى بجوارها . وهذا وحده هو الذى كان يجعلنى أتغلب على كل ما يخالجنى من الشكوك . ولكنى كنت أحاول ألا أرتكب إثماً معها بتحبيذ فكرة قد لا أتمكن من أن آخذ دورى فيها ، ومن هنا كانت اعتراضاتى دائماً ، ولكن إلى حد لا يقطع من نفسها آمالها ، وإنما يجعلها تتروى . وكانت كلمتى الأخيرة وقفاً على ما أخلص به من نتائج من مشاهدة العشائر اليزيدية عن كثب ، وكان كل ما فىّ يدفعنى للقيام بمثل هذه المغامرة ، لأنها ستكون بجانبى ، وكانت بنت يزيد بجوارى فى هذه اللحظات التى غرقت فيها فى تأملاتى تحاول أن تعطينى فكرة عامة عن الرحلة التى سنقوم بها فى الصباح الباكر من الغد .

وقبل أن تغادر الشمس مكمنها الأزلى ركبنا السيارة ، وكان مجلسى بجوار زليخا ، وكان مجلس الشيخ شمعون بجوار السائق . وكان السكون يخيم علينا ، ولا نقطعه بكلمة أو حديث . ومن يدرى فربما كان النوم يداعب أجفاننا ، والحقيقة أن سنة من النوم كانت قد طغت علينا جميعاً ، ما عدا السائق بالطبع . . . ولست أدرى بعد كم من الوقت فتحت عينى فرأيت فى السماء لوناً من الزرقة ، المختلطة بحلكة الظلام . كان الصبح فى ساعة الميلاد . والهواء الذى ظننت

أنه شفاف للوهلة الأولى ، بدا يحمل ضباباً خفيفاً ، كان رطباً ، والسماء تغشاها بعض الغيوم فى لون الرماد وبدت الصحراء الحقيقية فى تجردها وصلابتها تحيط بنا ، وفجأة أدار السائق رأسه لنا وقال : الغزال ! وأشار بيده إلى نقطة متحركة فى الصحراء .

وبدا فى الأفق رهط من الغزلان . ما إن أحسّ بنا ، حتى رفع رءوسه يرقبنا بعد أن كان يرعى كلأ الأرض . وكانت هذه الحركة إجماعية كأنها صورة المصلين يرفعون رؤوسهم إثر الانتهاء من السجود . وبدا رهط الغزلان مديراً لنا ظهره ، منطلقاً فى حركة واحدة . واستقر بعيداً عنا ، ووقفت جموعه منتظمة وكأنها فصيلة عسكرية .

وقطع على خواطرى هتاف القافلة كلها : ها هو ذا الفرات !

وبدا الفرات ، ذلك النهر العظيم ، كحية رقطاء استقرت فى جوف الصحراء . . . وذهبت فى سبات عميق .

وانتهينا إلى دير الزور ، وتزودنا منها بالماء والوقود من باب الاحتياط وانطلقنا . ودير الزور هذه هى العاصمة الحقيقية لبادية الشام لأنها الجزيرة الكبرى وسط بحر الصحراء المتلاطم .

وبعد لحظات من قيامنا من دير الزور عبرنا الفرات على جسر معلق ، وبذلك دخلنا أرض الجزيرة ؛ حيث قامت دولة آشور ومدنية نينوى ، كنا قد أخذنا نطوى الطريق من بلاد الزباء لبلاد سميراميس . ما أعظم تلك الشعوب التى لها من نسائها أبطال فى تاريخها المندثر ولو على أساس خرافى ؟

وجلسنا نتناول غداءنا ، وكان لهذه الوجبة شأن فى حياتى . لا شك أننى لن أنساها . وكنت مع زيلى جلوساً متجاورين ، وكانت رائحة شواء الدجاج مع عطر اليوسف أفندى « المندالين » ورائحة شراب « بردو » تختلط فى خياشيمنا ، وكان عطر « المندالين » فى أثناء تقشيرنا له يفوح تاركاً وراءه فى الأثير جواً ينقل الإنسان إلى مزارعه ويجعل خياله يتصور أشجاره لا تزال خضراء تحمل أثماره .

وكانت فورة المشاعر قد جعلتنى أحس عبارات لطيفة وظريفة وتصورات جميلة تختلج فى نفسى . وشعرت بالميل أن أقدم إلى رفيقتى فى السفر زيلى باقة من الإحساسات والمشاعر التى تصطخب فى صدرى ، والتى أثارتها هى فى أعماق القصية ، وفجأة تكلمت : ما هى الألوان والأطياف يا زيلى ؟ أليست هى كل ما فى عالمنا من زخرف ورونق وجمال ؟ ؟

إن الأطياف والألوان وجود انبثق بكل جلالة من أطواء العدم . . . ليسربل الموجودات بضيائه ، وليبعث فيها الحياة والجمال والحلاوة والطلاوة ، إن الموسيقى نتيجة لما سربل الأصوات من أطياف وألوان ، والشعر نتيجة لما سربل الألفاظ من الألوان والظلال والأطياف . ولا يمكن للفكرة ولا للخطرة أن تدخل فى نطاق الفن قبل أن تلبس لها لبوسها من الألوان والظلال والأطياف ، والمرأة لكونها طيفاً جميلاً برزت فى عالم الموجودات ، لهذا نجد النساء يجعلن أنفسهن مشجباً للألوان والظلال .

فضحكت زيلى وقالت : أظن أنك لا ترى فى الرجل ظلاً واحداً على الغالب .

فقلت : إننى أرى الأطياف والظلال فى المرأة وحدها . إن المرأة غصن جميل ، لو شاءت لأزهرت فى كل يوم عشر مرات . فى كل مرة زهرة لها لونها الخاص وطيفها الخاص وظلالها الخاصة !

فقالت : وإذن فالرجال عندك كأشجار السرو والزيتون .

فقلت : يخيل إلىّ أن فى روح الرجال شيئاً من القتام ، ويخيل إلىّ أنهم كالمشروبات الثقيلة ! . . . تأملى . . . إن كل الأشياء التى تبرق وتتلألأ وتشع وتتألق من اللآلئ والأحجار

الكريمة وأنواع الفراء الفضى الفاخر ، كلها مخصصة بالنساء .
ألسنا نحن الرجال نرى بدر السماء ونجومها والبروق التى تتألق فى الليالى المظلمة ، والغروب والشروق ، والفجر ، وكل ألوان الطبيعة وظلالها وأطيافها فى النساء ، فى وجناتهن ، وفى ثغورهن وفى عيونهن وفى شعورهن وفى أجسادهن الناعمة !
ثم عند المرأة كل ما يبعث النشوة فى نفوسنا من مظاهر الطبيعة ، من ثورتها وسكونها ، من هياج البحر وهدوئه ، من تلاطم الأمواج وفيضان الأنهار ، من تألق النجوم واندفاع المياه . كل هذا نراه فى المرأة ، فى صدرها ، فى الأعماق من نفسها ، فى روحها ، فى تلفتها وحركاتها ، فى بسمتها وفى عبوسها .

وأظن أن زيلى كانت تلمس من إطنابى فى مدح المرأة . مظهراً من الحالة التى جرأتنى ، فلاطفتها وأمسكت يدها واحتويتها بين يدى . نعم ، لا شك أن زيلى كانت غارقة فى أحلامها ، كانت قد انزوت فى ركن السيارة التى تقلنا ، وقد التفت بردائها وأحكمته على بدنها الغض . وكان إنصاتها لى يحمل إلى نفسى صورة منها . وكأنها تستمع إلى أحلام وتخيلات إنسان ذهبت برشده الخمر .

وفجأة حولت وجهى نحو الصحراء التى اكتست بلون الرماد وبدت مقبضة للنفس ، مورثة للملل ، حيث انتشر على

وجهها قليل من الضباب ، وقلت : الموت ! ما هو ؟ انحلال تام فى الطيف وافتقاد نهائى للون . والواقع أن ضعف الظلال أو قتام الألوان مما يورث الملل فى النفس والانقباض فى الروح . والوحدة والكدر ، ماهما ؟ ليسا إلا الروح الإنسانية وقد تجردت مما يتراقص عليها من ألوان الحياة وأطيافها . الطيف والظلال برغم أنهما فى الحقيقة لا شىء ، هما فى الواقع كل شىء . إن أبرز مثل لذلك العَلَم ، فإن اختلاط بعض الألوان على قطعة من القماش المطرز ، يجعل آمال أمة بأسرها تجرى وراءها . إنها رمزأمانيها فى الحياة . . . والمرأة ، ما هى ؟ رمز أمانى الرجل فى الحياة . تنعقد عليها كل آماله ورجائه فتجرفه وراءها . أليس هذا هو الواقع ؟ أليست المرأة هى التى جرفتنى وجرتنى وراءها حتى سهول الجزيرة ، ألست أنت هى ؟ . . .

وكنت أنظر إلى زيلى وأنا أنطق بهذه العبارات أحاول أن أسبر أغوارها القصية من نوافذ نفسها ، من عينيها الصافيتين ، من تلك الحلقات الزمردية والياقوتية المتداخلة ، من ارتجافات شفتيها التى تحمل ما يختلج فى أعماقها . كنت أحاول أن أشق الطريق من شفتيها القرمزتين ، اللتين تحاكيان زهرة ثمر الرمان . وكنت أحاول أن تكون نظراتى هادئة حتى لا تؤذيها . ولهذا كنت أحياناً أصرف النظر عن وجهها إلى جيدها ، فبدنها ،

فشعرها المسترسل خصلات سوداء حالكة تحاكى الليل ، ومن بينها كان وجهها يبدو لى فى نصوعه كالصباح . والفجر يبدو لى بشفقه من شطرى وجهها . ها هو ذا الليل وها هوذا النهار قد اجتمعا فيها ، وهذا هو الفجر يفصل بينهما . لقد كانت الدنيا كلها إزائى !

وكانت هي تنظر إلى الصحراء المبتلة بدموع السماء غير أنه من المحقق أنها كانت تمعن فى مدلول عباراتى ، كانت تتلذذ بهذا الشراب اللذيذ الذى أسقيتها إياه قطرة قطرة . ولم يكن إظهار هذه اللذة ليتفق مع ما تأخذه من الوقار الذى تتظاهر به معى .

ومهارة المرأة فى مقدرتها على حفظ حقيقة ما تنطوى نفسها عليه . فهى لا تظهر رفضاً ولا قبولاً ، لا صداً ولا ليناً ، إنما تبدو فى مظهر كله براعة . تعلقك بالأمل ، وإن كانت تجعلك تخاف انقطاعه . كانت تترك الإنسان فى حالة تخالجه فيها الشبهات . وفى هذه الحالة المترددة التى تترك عليها الإنسان كل أملها فى بلوغ أغراضها .

والرجل فى الواقع بجانب المرأة التى تظهر مثل هذا الاقتدار، أشبه بأرجوحة يعلو به خيال وينزل به واقع ، تحمله نشوة ويسقط به كدر . وهو فى هذا موضع النقائض من حيث تعاقب

عليه . وهو يجد فى كل هذا ما يبعث فى نفسه اللذة ، اللذة التى لا تدانيها لذة أخرى فى الوجود .

إن الفردوس دار النعيم، والجحيم دار العذاب ، وتصور هذا ممكن ، ولكن ألذ الساعات التى ستمر بالإنسان لا شك أنها ليست فى الفردوس ولا فى الجحيم ، وإنما فى وادى الأعراف حيث يختلط الأمل مع اليأس ! !

وأنا كنت فى الواقع فى وادى الأعراف !

٩

وتراءى لأبصارنا جبل كوكب ؛ وكان جبل « الحصن » الذى يقع على مبعدة منه يبدو لنا كأنه رابض فى أعتاب كوكب !

بدا لى هذا الجبل الأسود ، الحالك فى سواده ، كإشارة تعلن لى انتهاء الرحلة ، أو وشك الانتهاء منها . وقد أحسست بحسرة أليمة فى أعماق نفسى . وكنت أتمنى أن تتحول بنا هذه الصحراء ساحة تمتد كسهوب سيبريا ، نجتازها فلا تنتهى بنا الطريق ولا نصل منها إلى غايتنا ! . . . كنت أنظر جبل

كوكب وكلى ألم وحزن ، وفى نظراتى إليه معنى من معانى الغضب والثورة .

وفجأة أحسست بيد السرور الناعمة تربت على قلبى الحزين . ذلك أن الشيخ شمعون التفت إلينا وأسرّ لنا بالكردية : أظن أننا سنضطر أن نبقى وسط الطريق !

لقد كانت السيارة تدور يمنة ثم يسرة على الأرض الممدودة ، وكان الطريق الممتد أمامنا يعلو ، ولهذا لم يكن فى إمكان السيارة أن تعلوها والأرض فى بلل !

والتفت إلى زيلى ونظرت إلى وجهها ، ولكنها كانت لا تحمل إحساساً معيناً .

وأسكت السائق « موتور » السيارة الذى كان يرغى ، ونزلت أنا وشمعون ، نحاول أن ندفع السيارة فى الطريق ، ولكن محاولتنا ذهبت عبثاً .

وألقيت نظرة على ساعتى فإذا بالوقت الرابعة . لم يبق كثير على غروب الشمس فتوجهت لرفاقى قائلا : عبثاً نحاول ، لنحتفظ بجهدنا . ولنبحث عن مأوى نقضى فيه ليلتنا حتى يطلع النهار فنستعين بمن يخرجنا من هذا المأزق !

وكان الخابور ذلك النهير الذى يشق الجزيرة ، على يميننا . ولا شك أن على مقربة منا بعض القرى والدساكر وكان

الشيخ شمعون مرتبكاً يرسل نظرات ساهمة نحو الأفق ويلتفت يمنة ويسرة . . . وأنا بدورى أنظر إلى ما حولى وأتملاه جيداً . لقد كنا وسط ضباب قاتم ، وكانت السماء ترسل المطر رذاذاً . واجتمعت قطرات الماء فوق معطفى كنقط من الزئبق . . . وكنت أحس برطوبة الجو ، وهو يترك قطرات ماء تتجمع على حفافى شواربى .

وبدت زيلى واقفة بيننا منتصبة !

ووقفت أتملاها ، وأتأمل محاسنها التى سطعت فى البرية المكفهرة القاتمة فى أضوائها . ونسيت وأنا أتملى محاسنها أن أفكر فى مكان نأوى إليه هذا المساء ، ونأمن فيه عليها . لقد كانت فى ظرفها وفى رقتها وفى طراوتها وفى سكونها وتمالك جأشها تجعلنا نحسّ كأننا جماعة نزلنا معها نتملى من رؤية مشهد من مشاهد الطبيعة الساحرة . وبينما أنا سابح فى تخيلاتى إذ تحرك الشيخ شمعون وانطلق فى جوف البرية متجهاً يميناً قائلاً لنا : لا شك أن خيام البدو ليست على مبعدة منا . أنا ذاهب أبحث عن نفر يساعدوننا فى ورطتنا هذه .

وهتفت أنا بدورى : وأنا معك !

ولكن زيلى اعترضت سبيلى قائلة : ابق ! ليس فى ذهابك فائدة ، أتظن فى ذلك فائدة لنا ؟ إن الشيخ شمعون كاف

لتحقيق هذا الغرض . هو يجيد لغة هؤلاء البدو .

وبدت هذه الحسناء التى كانت من قبل متحفظة معى فى صورة من افتقدت بعض جوانب هذا التحفظ . ولمست فى وجهها نشوة وفى صدرها أملاً أن أبقى بجوارها . ولست أدرى ما كانت غايتها من ذلك ؟ لقد كنت حيران ! وكان شبح الشيخ شمعون يغيب فى طى الضباب . وكان جرمه الممتلىء يأخذ فى التضاؤل كلما ابتعد عنا ، حتى غاب فى الأفق . وطالعنا السائق بفكرة أنه يظن أن وراءنا قرية صغيرة ، لمح منها قبل لحظات النار التى أشعلها أهلها من البدو . فأشرت عليه أن يتجه نحوهم ، وليلق هو بدلوه ، قائلا : وإياك أن تغيب أو تغيبنا عن أنظارك ! . . .

وأخذت أشاهد مشهد غياب السائق أيضاً وكان كصاحبه يذوب رويداً رويداً فى ضباب البرية حتى تلاشى فى أطوائها كما تلاشى من قبل زميله الشيخ شمعون .

لقد كان الموقف الذى أنا عليه عجيباً ، فما كان يخطر ببالى أن زيلى الحسناء الأرجنتينية تجمعنى إليها الظروف وتمهد لنا السبل حتى نكون جنباً إلى جنب منفردين فى جوف البرية وراء الفرات ، من أرض الجزيرة ! لقد كنت أشعر بأنها نعمة من القدر أن يجازينى بهذا النعيم ، وكنت فى حيرة من سعادتى

التى أنا فيها كالحالم الذى يحلم فى نومه بأطيب الأحلام . ولم يكن فى مقدرتى أن ألج السيارة التى دخلتها زيلى متهالكة فيها ولكن زيلى تحركت وقالت : أخشى عليك من البرد ، ألا تدخل ؟ !

فأجبت : إننى أفكر فى أمرى ، وكيف أننى لم أقم بأى فائدة للرهط ، وفى نفسى أن أنثنى ميسرة أجرب حظى أنا أيضاً . . .

فضحكت وقاطعتنى قائلة : دعك من كل هذا ! ادخل . . . ادخل السيارة . . .

ونزلت عند رغبتها ودخلت السيارة وانزويت فى ركن منها على قدر ما يسعنى الانزواء . ولكن زيلى لم تتركنى لأمرى إذ قالت : ألا تأخذ راحتك . . . إن جلستك فى السيارة غير طبيعية وليست مريحة لك .

فأجبتها : إننى أشاهد البرية لعلى أظفر بما يرد على أنفسنا طمأنينتها .

فقالت : إن كنت ترى لعينيك قدرة على جلب المعونة إلينا ، وترى لهما قوة مغناطيسية تجذب إلينا من ذهبوا يبحثون عن المدن فداوم فى إلقاء نظراتك نحو البرية !

وشعرت أن استهزائها بى يحمل إلىّ معنى عدم ارتياحها

للتحفظ الذى أخذت نفسى به . وقطعت علىّ تفكيرى قائلة : مالك صامت لا تتحدث ، لقد كنت من قبل تتحدث بطلاقة عجيبة وبنشوة !

فقلت : إن نفسى لفى ضيق شديد !

فقالت : لم ؟

فقلت : لأنك ستقضين هذه الليلة غير مرتاحة . . .

فقالت : وماذا يكون لو قضينا الليلة هكذا ؟

وشعرت بشىء من الجرأة ، فقلت : لكم أنا سعيد أن تجمعنى الظروف إليك . لقد كانت الساعة الأولى التى رأيتك فيها بالباخرة ماريبت باشا وأنت تتحدثين بالكردية ذات أثر فعال فى نفسى ، وجعلتنى نهباً للشكوك التى كانت تتناوب ذهنى . والآن هأنذا فى جوف البرية وجهاً لوجه معك ، مرتبطين برباط الصداقة ، إن هذا التبدل نفسه يجعلنى أغتبط . وكلما فكرت أن هذه السعادة ليست بالميسرة لكل إنسان شعرت بما يزيد على نشوتى . . .

فقالت : ولكنك لا تبدو سعيداً لكونك معى . . .

فأجبت : هذا لما أنا عليه من ثورة المشاعر وهيجان الوجدان. لقد كنت أظنك واحدة من الإنسيات يوم رأيتك بين الناس ، ولكن الآن ، فى هذه البرية الممتدة أحسست بالهوة السحيقة

التى تفصلنى عنك . إننى أشعر بالهوة التى يشعرها الفانى مثلى أمام الذى لا يموت ! . . . .

ومدت زيلى يدها ، ضغطت على الزر المعدنى فإذا بالضوء يغمر المكان وقالت : لقد أشعلت المصباح الكهربى حتى نستطيع أن نرى من بعيد اللذين ذهبا يطلبان لنا المدد ، فلا يضلان الطريق فى العودة .

وكان هذا الكلام يحمل فى أطوائه لى معنى آخر . ولهذا قلت لها : حسناً فعلت !

وكنا نحن ومضة من النور تتألق فى حالك الظلام الذى ينوخ على البادية بقتامه . وكنت بين الفنية والأخرى أطل من النافذة . لأرى وأتفقد الذاهبين ، عسى أن يكونوا قد أتونا بالمدد . وكان القتام الذى يحاول أن يتداخل ، والنور الذى يشع من السيارة من مصباحها الكشاف المنير فى جوف البادية ، يبدو لى أشبه بشىء كثيف ، حتى لقد كان الخيال يغرينى أن أمدّ يدى فألمسها وأرى ما هى . غير أنه يظهر أنها وطنت النفس ألا تسكت وألا ترضى بسكوتنا فقالت لى : لا شك أنك فى هذه الساعة تفكر فى أصحابك الذين بين الآستانة وأنقرة ، وتشعر بالمدى الذى لا يتصل طرفاه ، بينك وبينهم ، وبالفوارق بين أمرك وأمرهم . . . لا شك أنك غارق

فى تلك التصورات ، تراودك أحلام الشباب وذكريات الماضى معهم . . .

فقلت : إنى لا أشعر بهذا المدى والفرق إلا بينى وبينك . فرق عمر وفرق تعلق بالمثل . . .

وأكملت حديثى إليها بنبرة كسيرة حزينة ، وقلت : إن الرجال الذين جاوزوا سنى الشباب مثلى يشعرون دائماً بالفارق بينهم وبين الفتيات ، وإذا هم تزوجوا بمن هن أقل منهم سناً ، يشعرون بالفارق الروحى والزمنى ، وهذا يجعلهم يهربون من الحياة الزوجية . وأنا فى الواقع من هؤلاء وإذا كان لهم من عيب فذلك مصدره حساسيتهم الزائدة . يمكن أن يقول الإنسان إنهم أنانيون ، غير أن هذا لا يعنى فى الواقع أكثر من أن أنانيتهم هى فى تهربهم من الآلام المتصلة إلى ألم بسيط ، هو الابتعاد عن الحياة الزوجية ، ومثل هذا الترجيح لحياة العزوبة فى الواقع — وإن كان يعطى الإنسان قسطاً من اللذة قليلا — إلا أنه ينقذه من آلام كثيرة لا يحتملها الحساسون !

كانت هذه الكلمات تنتهى إلى أذن زيلى وتطرقها وكأنها تعطيها صورة من حقيقة التحفظ الذى أخذت نفسى به . ولهذا أجابتنى زيلى قائلة : أنت على حق فيما تقول !

ثم مدت يدها بمنديلها تمسح ما تجمع على النافذة من

قطرات الماء حتى تكشف الخارج . وحمل النسيم الذى هب علينا من الخارج جواً رطبا يحمل رائحة عطرها . وشعرت فى هذه اللحظة بالآلام التى سوف أعانيها حين لن أجدها إلى جوارى ، إنها آلام مريض تراوده فكرة عدم امتداد العمر به حتى الربيع الجديد .

• • •

لقد كانت عملية إنقاذ السيارة صعبة ، واستغرقت ردحاً طويلاً من الزمن .

وكان الشيخ شمعون قد جاءنا بنحو عشرة فرسان من قبيلة شمر ليساعدونا فى التخلص من الورطة التى انتهينا إليها . وبواسطة الجهد المبذول تحركت العجلات على الأرض وتحركت السيارة . على أننا اضطررنا أن نقضى بعض الوقت مع المساعدين الذين لحق بهم شيخ قبيلتهم مع كبير أبنائه . وعلى ضوء مصباح السيارة تجمعوا حولنا ، وكان شيخ القبيلة يتحدث إلينا بالفرنسية ، كان على جانب كبير من اللطف ، وكان يصر هو وجماعته أن نقضى ليلتنا فى خيام القبيلة . وكنت أعرف أنه أكثر المصريين فى هذا الطلب ، وأن سبب إصراره هو وجود زيلى . . .

كان ابن شيخ العشيرة يطمع فى أن يقدر على أن يجعل

هذه الحورية الإفرنجية ترضى بقبول ضيافة عشيرته . وكان يأمل ألا يضيع فرصة سنحت له . لقد كانت المشاعر تصطخب فى نفسه وكنت أنا أحسها ، ولكى أضع حداً لإلحاحه توجهت لزيلى قائلا : ماذا ترين ؟ هل نداوم السفر أم نقضى ليلتنا فى مضارب القبيلة !

فأجابت : لنستمع رأى الشيخ شمعون ؟

والواقع أنها تؤمن إيماناً تاماً وتثق كل الوثوق بهذا الرجل .

وقال شمعون : أرى الطريق بعد هذا مأموناً ، فلنسر على البركة .

وأسرعت أنا أؤمن على حديثه قائلا :

ـ نعم ، من يدرى فربما لا نشعر بالراحة فى المضارب . ومن المؤكد أننا لن نرتاح لطعامهم ، ولن نجد الراحة فى نومنا فى خيامهم . لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة التى تضطرنا للنزول عندها . وعلى فرض أن السياره تعطلت بنا فى الطريق ، ففى الإمكان أن نقضى الليل فيها حتى يطلع علينا النهار .

وكان الشيخ شمعون ساكتاً . . . وكنت فى عجب من جموده ، ألا يتحرك هذا الرجل مرة ويخرج عن جموده المشهود .

وتوجهت بنظرى للبرية ، وكانت النجوم أخذت تتألق فى السماء ، فى القبة الزرقاء ، كانت تبعث النور فى البرية

والهداية معها . . . وأخذنا نستعد للتحرك .

وقدمت « المشعل » الجميل الذى كان معى لشيخ العشيرة . أما زيلى فمدت يدها بوردة من ورد لبنان بعد أن تناولتها من صدرها وقدمتها لابن شيخ العشيرة ، وفى لهجة رقيقة قال لها بالفرنسية : أشكرك يا سيدتى. إن هذه الوردة سوف تذبل ، ولكن ذكرك العطر سوف يظل دائماً فى خاطرى !

وهذه ذكريات لن أنساها أنا بدورى من رحلتى التى قمت بها مع زيلى فى الصحراء ، وكان ابن الصحراء سبب مبعثها فى نفسى . وأخذنا نشق الطريق فى البادية على رمالها الناعمة نحو الهدف الأخير . وبدت أضواء « حسجة » لناظرنا ، وقالت لى زيلى :

ــ ما رأيك ؟ أنمر على صاحبنا ضابط الاستخبارات الذى قابلناه بالباخرة ، إن مقره هنا . فربما نجده ! . . .

فأجبت : ليس من رأيى أن نمر عليه إذا كنا لن نقضى ليلتنا فى البندر ، إن صداقة من هم فى وظيفة الاستخبارات لا تجيء للمرء بالخير . ومن الممكن أن يكتب إلى المركز بمرورنا وليس ببعيد أن يتصل المركز بحكومة العراق فنثير على أنفسنا بعض الصعاب . . .

وكان الشيخ شمعون جامداً . وقد مضى بنا من أطراف

القرية وكأنه واثق من أننا لن نطلب منه أبداً الوقوف عندها ولو قليلا . ومررنا فى يسر وسهولة من على الجسر القائم على نهر « الخابور » ثم عبرنا الجسر المقام على نهر « ساقاك » ودلفنا للبرية من جديد ، ولم تنتبه قرية « الحسجة » للسيارة التى أقلتنا والتى مرت من أطرافها .

كان الطريق الجديد الذى نقطعه صخرياً . لا شك أنه من بقايا الحمم التى كانت ترسله براكين الجزيرة فى العصور الجيولوجية السحيقة . . . وكنت قد مللت من نافذة السيارة أتأمل الطريق الذى نقطعه ، وقالت لى زيلى : إننا الآن أمام جبل « كوكب » وإذا تمعنت ودققت النظر بدت لك فوهة البركان من الجبل .

ومالت علىّ محدثتى ، وأطلت من النافذة التى فتحتها . كنا جنباً إلى جنب نطل منها ، وهى بجسمها متكئة علىّ ، وكنت أحس بأنفاسها الحارة فى وجهى ، وبالحياة تضطرب فى أعماقها ، واضطررت أن أعتدل فى جلستى كمن رأى الجبل وانتهى من رؤيته مع أنى كنت فى شغل عنه بها . وكان الوقت الحادية عشرة ، وكنا لا نزال نطوى البادية .

وفجأة أرسلت السيارة أضواءها من مصباحيها الكشافين ، وأخذنا نتخطى بعض الخنادق ثم دلفنا إلى طريق مستوية ، ثم

سارت السيارة فى انثناءات متعددة فى هذا الطريق . ولأول مرة انتهى إلى أذنى منذ بدأنا الرحلة صوت الكلاكسون من السيارة ، وقربت زيلى وجهها من النافذة ونظرت للخارج ، وجاريتها أنا بدورى ، كان يحيط بنا أربعة أو خمسة فرسان ، وسألت زيلى بلهفة : من يكون هؤلاء ؟

كنت أظن أنهم من رجال الحدود أو من مفتشى الجمارك غير أن زليخا قالت : إنهم رجالنا .

وأدركت أننى بت الآن فى أرض سنجار بين عشائر اليزيديين فى موطنهم الأصلى ، وفى ضيافتهم .

١٠

في صبيحة اليوم التالى ، عندما استيقظت بعد تلك السياحات الليلية الطويلة المملوءة بالطرائف والخيالات اللذيذة ، كنت أشعر بدهشة عظيمة وكان يخيل لى أننى داخل ستوديو سينمائى : فالسرير الذى رقدت فيه كان يشبه السرر الأوربية وكان فى وسط الغرفة منضدة ذات رجل واحدة صنعت داخلها رفوف لوضع الكتب ، وفوقها وضع تمثال للملك غازى الأول مصنوع من الفخار ، وفى طرف الغرفة كانت تقوم خزانة عظيمة متحركة إذا فتحت أبوابها ظهرت وراء كل باب مرآة مزخرفة أطرافها بالماس ، وبانت داخلها ملابسى المعلقة بانتظام . وكان هناك ثلاث أرائك لا تشابه إحداهما الأخرى . . . ذلك ما كان فى البيت .

ولكن هذه الأشياء كانت تعطى الغرفة المزخرفة الجدران العالية ، شكلاً رائعاً عجيباً ، أما من حيث المجموع فلم تك تشبه الغرف التى نعرفها نحن ، فكنت إخالنى داخل برج قلعة أو صومعة دير .

كان أول ما قمت به بعيد استيقاظى من النوم أن ركضت إلى النافذة ، غير أن ارتفاعها عن مستوى قامتى اضطرنى إلى سحب إحدى الأرائك والصعود عليها لفتحها . عندئذ أطلعت على ذلك الحصن الساكن ، وكان الهواء لا يزال على رطوبته ، ولم يكن أمامى فى تلك الربوع الخالية قرية ولا بيت ولا قادم ولا غاد .

جلست أستجمع فى مخيلتى حوادث الليلة الماضية : إننا بعد أن اجتزنا طرقاً محجرة محاطين بكوكبة من الفرسان ، وقفنا أمام عمارة مهيبة منورة باحتها بقناديل « اللوكس » . ومدخلها عبارة عن درج مكشوف ، بعده باب منخفض ، ثم درج آخر ضيق مغلق . . . وفى النهاية « صالون » واسع ساطع الأنوار .

استقبلت زليخا خادمة مصقولة الشعر مقصوصته على الطراز الأوربى ترتدى أردية سوداء ، أما أنا فكان غلام يحمل لى حقيبة ملابسى .

وبعد بهو وأربع أو خمس درجات كنت داخل الغرفة التى سبق وصفها ، ثم فتح لى الغلام باباً مجاوراً لغرفتى رأيت داخله حماماً صغيراً ومغسلة حديثة تتقد تحتها النار . وبعد برهة جاءنى الغلام يخاطبنى بالفرنسية قائلاً : إن الأميرة تعتذر لشدة تعبها .

ولذا فسأحضر طعام السيد إلى غرفته .

تناولت طعامى بعد الاستحمام على مائدة خيزران مغطاة بالبللور ، وكانت تضم المائدة أنواع الأطعمة الغربية والشرقية والمشروبات الروحية المختلفة . فكانت تعتريني الدهشة كلما نظرت إلى هذا الرقة وسط ذلك القفر المنقطع البعيد الأثر القائم على سفح جبل قاحل ، فكنت أقول فى نفسى : إن ملايين زليخا وعبدتها الذين يعدون بالألوف من سكان تلك الأصقاع هم الذين أوجدوا هذا الرفاه فى ذلك الحصن النائى ، بل ربما كان اليزيديون يرون فى نقل هذه الأشياء إلى الحصن على ظهورهم نوعاً من العبادة ! . . . وبمثل هذه الأفكار والتصورات وتحت تأثير المشروبات والأطعمة اللذيذة التى تناولتها استسلمت إلى إغفاءة عميقة .

وفى الصباح أتانى الخادم المخصص بالاعتناء بى يحمل طبقاً من الفضة عليه بطاقة صغيرة علمت حالاً أنها من زليخا . فأخذتها وتلوتها فإذا فيها : « إذا كنتم تودون القيام بجولة على ظهر الخيل فكونوا على استعداد عند الساعة التاسعة » .

أخذت تلك الورقة بيدى عدة مرات فى أثناء ارتدائى

الثياب . وبالرغم من أنها لم تك تحوى كلمة أو عبارة يصعب فهمها فقد تلوتها تسع مرات أو عشراً !

واجتزت فى أثناء محاولتى الصول إلى الصالون المعد للاستقبال ممرات ضيقة ودهاليز معتمة ، ولما صرت فى منتصف الصالون أدخلت إلى غرفة مكتب ، وهنالك رأيت كاتباً مسناً ينحنى بمبالغة لا تخفى على عين المشاهد ، أمام سيدة مقدماً إليها رزمة من الأوراق للتوقيع عليها . تقدمت فجرى التعارف بيننا .

وأخذت زيلى تتم حديثها قائلة : إن لدى أناساً يساعدوننى فى تسهيل مهمتى ، وإذا لم أقنعكم بصحة مشروعى واستقامته فيجب عندئذ أن أراجع الدول المجاورة ، ثم وقعت ورقة وكلفت الشيخ شمعون أن يحملها مع بقية الرسائل إلى الموصل . وبعد برهة كانت السيارة التى تقل الشيخ شمعون تقطع الفيافى والقفار المحيطة ، فى الوقت الذى كنت فيه أنا وزليخا نمتطى صهوة الجياد . شعرت لأول مرة بعد وصولى إلى الحصن بالراحة والطمأنينة لأن شبح الشيخ قد ابتعد ، ذلك الشيخ الذى — بالرغم من أنه كان لا ينفك يطرق برأسه إلى الأرض ولا يرفع نظره إلىّ — كنت إخاله يرمقنى دائماً بدقة وانتباه لدرجة أننى صنعت له فى مخيلتى عينين صناعيتين يرى بهما بدون أن

يحول نظره عن الأرض . وكان يشع من تينك العينين بريق مدهش عجيب ينم عن أسرار خفية كامنة فى نفس ذلك الشيخ .

إن ركوب الخيل ولباس الركوب كانا يليقان جداً بجسم زليخا ذات الخصر النحيف والقد الأهيف ، وكنت أسير وراءها لضيق الطريق التى كنا نمر بها ، ولا شغل لى إلا أن أنظر إلى عقصات شعرها الطويل المسترسل تحت القبعة الرجالية السوداء ، فكأننى لم أكن أقصد قط النزهة فى الجبل ، بل جل ما أبغى هو أن أصعد شيئاً فشيئاً بمتابعتى الإحداق بذلك الشعر الجميل إلى طور الإجابة لدعوة سماوية .

وفعلا كانت هضاب سنجار مغطاة بسحب كثيفة وقد اعتقدت أننى سأرى بين تلك السحب مخلوقاً فوق البشر أو ربمّا يزيدياً . . .

وبدا لى البناء الذى حللت به ضيفاً أكثر وضوحاً وبهاء عندما أصبحت فى أعلى الهضبة المجاورة للحصن . وقد جال فى خاطرى أن هذه القلعة ربما كان الصليبيون الحمر هم الذين أسسوها ، وأضيفت إليها على توالى العصور جدران جديدة فبدت على شكلها الحاضر ، ولكن موقعها العجيب قرب الجبل كان يظهرها بمظهر الصخرة الناتئة من

بطن هضبة .

لحظت زليخا إحداقى الطويل بالقلعة وإعجابى ببنائها الشاهق فبادرتنى قائلة : كان للأمراء اليزيديين فى سالف الزمان قصور فخمة على مقربة من قصبة داهوق التى تبعد مسافة عشر ساعات عن الموصل ، ولا تزال آثارها باقية تقارع الزمان . لقد اخترت هذا الحصن لإقامتى فى جبل سنجار لماله من علاقة مباشرة بتاريخ عائلتى ، فقد حضر والدى مواقع دامية تحت هذا الجدار ، وكانت هجرته من هنا وأقام عمر باشا شهوراً عديدة فى الحصن جمعت خلالها فى باحته الألوف من الرؤوس والجماجم البشرية ، ودخل فى حوزة هذا القائد أربعة أعلام يزيدية من ستة كانت ترفعها فرقهم ، وقد استطاعوا أن ينجوا بعلمين أخفى أحدهما فى مخزن هذا البناء سأريكم إياه فى العودة .

بدأنا نسير فى ممرات الجبل الضيقة يحرسنا فارسان مسلحان يسيران بعيداً عنا ، وفجأة قطع طريقنا جدول ماء فوقفنا ، وكانت هى البادئة بالكلام . فقالت : دخنوا هنا لفافة . . . وبإمكانكم أن تعطونى أخرى .

ترجلنا فاقترب منا الحارسان واستاقا أمامهما الخيل ثم اختفيا بعيداً وراء أكمة . نحن الآن فى أعلى بقعة من الهضبة وقد

أخذت شمس الصباح تبدو وترسل أشعتها الذهبية على ربوع تلك القلعة . وقالت زيلى : هل استطعتم أن تمضوا ليلة البارحة براحة وهدوء ؟

فأجبتها : أما من ناحية الجسم فقد مرت الليلة براحة وهدوء تامين . وأنت ؟

فسكتت قليلا ثم قالت : وسط . . . وقذفت بعصبية ظاهرة فى الماء بلفافتها التى لم يشتعل منها غير جزء يسير .

فكرت أنها قد اهتمت بحادثة البارحة بقدر ما اهتممت بها أنا الآخر . فالنساء اللواتى لم يدركن بعد معنى الحب كما يجب ، يمضين بعد أول مناسبة غرامية ليالى طويلة للتغلب على رغباتهن ، وغالباً ما يكون صباح هذه اليالى مصحوباً بنوبة عصبية .

شعرت أنها ترمقنى بنظرة فاحصة فهى تود أن ترى ذلك الرجل الذى تصورته فى مخيلتها على غير شكله وصورته ، تريد أن تتبينه وتعرف نفسيته وداخله وخارجه . غير أن شعر فودى كان يبدو ناصع البياض تحت أشعة الشمس المتوهجة . كما أن تجاعيد وجهى وخطوطه كانت تظهر أكثر عمقاً وأكثف ظلاً . وبالرغم من جسمى القوى وصدرى المتين كنت أعتقد أن بلوغى سن الخامسة والأربعين يبدو بصورة واضحة على

سيماء وجهى .

نحن نمر بين الراحة والرفاه إلى التعب والبؤس ومن حياة الأجير إلى حياة المعلم . . . ثم تكتمل حواسنا بعد أن تأخذ نصيبها من فهم الحياة ومسراتها ، فنستطيع حينئذ بسهولة أن نضرب على الوتر الحساس الذى نتمكن به أن نزيح عن أنفسنا همًّا أو نلقى عن كاهلنا نصباً ، كذلك يزداد موقفنا من الجمال وضوحاً . فنلحظ عندما ننظر إلى جسم امرأة التناسب الموجود بين أعضائها وربما يبدو حبنا — فى هذه السن — أقل اضطراماً وتهافتاً ، ولكنه مع ذلك حب مملوء بالمهارة والائتمان والرزانة ، فالمرأة تتذوق هذا الحب الواعى الراكز شيئاً فشيئاً أكثر مما تتذوق الحب الكائن المتهافت . وحب الرجل الذى بلغ سن الكمال لا يؤدى بالمرأة إلى الذوق فحسب ، بل يزيد فى شعورها به وحسها بالمعنويات . ولم يكن بإمكانى أن أقول ذلك لزليخا أو أحاول إفهامها إياه ، فإن الرجل ، قبل هذه السن ، شبيه بآلة فرغ محركها أو بميزان حرارة تمدد زئبقه بدون حرارة .

أما غرام الفتى فليس أكثر من رحلة سكير . وبما أننا نعرف ما نريد فقد سلكنا أقصر الطرق وهذا الذى جعلنى أعتقد أن حبنا سيدوم .

مرت هذه الخواطر بنفسى فى الوقت الذى كانت فيه الرغبة تؤثر فى جسمى تأثيراً فيزيولوجيا ، وقلت من الممكن أن تستولى غداً على روحى وتمتص كل أنانيتى . . . ولكن ماذا بعد ذلك إذا ما فشلت فى الحب ؟ لا شك أن الصدمة ستكون جد أليمة . وفجأة بدأت أفكر من جديد بهذه الهواجس المضنية . . . وما تفكيرى إلا بدء الشعور بالكبر ودخولى مرحلة الكهولة — غرام رجل فى الخامسة والأربعين من عمره . . . لقد بدأت الآن أنظر إلى مزايا التقدم فى السن — هذه المزايا التى كنت أفكر فيها قبل قليل — بشىء من الحقد والتأفف والغضب . إن العناية بتجنب الهيجانات والاضطرابات النفسية هى أول علامات الشيخوخة .

يقولون إن القلب لا يشيخ أبداً . . . إلا أن خمود حرارته يجعله فى سمط الداخلين فى الشيخوخة .

— أراك مطرقاً كثيراً . . .

— أفكر فيك ، وأفكر قليلا فى نفسى ، وكنت أود لو أنك غير شابة ، وغير رائعة الجمال بهذا المقدار . إن شبابك وجمالك قد سلبانى لبى . إنى أصارحك بكل ما تنطوى عليه جوارحى . . . وأحب أن أسألك سؤالا أرجو أن تجيبينى عليه بصراحة .

– قل . . . إننى مصغية إليك . . .

– هل أحببت أحداً قبل اليوم ؟

تبسمتْ ، وعلمتُ من وراء هذا الابتسام أنها لم تغامر قبل اليوم بصورة جدية .

قالت : إذا كنت تعدّ الاقتراب من المرء ومعاشرته والائتناس به حبّاً ، فقد أحببت حتى الآن مرتين . . . يتراءى لى أن حب الفتاة يكون هكذا . . . ترى شخصاً فتنجذب إليه ، وتتمنى لو يحتضنها ويضمها بين ذراعيه ، تضغط بيدها على يده وتتلاقى نظراتهما وتود أن يقترب منها وأن تلتصق به . . . وهذا كل ما فى الأمر . . . فأنا شعرت بذلك لأول مرة مع أحد وكلاء مزارعنا . كان جميلا كأدونيس ، متناسق الجسم ، منسجم الهيئة ، فارساً لا يدانيه فى الفروسية أحد ، يمسك بقبضة يديه قرون الثيران ويمتطى ظهورها ، ويخضع لأمره مئات الفلاحين ، وبدلا من أن ينظر إلى جمالى وجاذبيتى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ، كان يداعب المهرات ويخمشها ويقبل أفواه العجول ، ويمر من أمامى بخفة ورشاقة مرور الكرام . كنت أود لو بدت هذه العاطفة نحوى ، كنت أشعر برغبة ملحة لأن يحتضننى ويصهرنى بين ذراعيه وأن أنام على صدره القوى كلما حمل بين صدره حملا صغيراً . . .

ولكن هذه الأمنيات تبددت فكنت أنام كل ليلة وملء عيني الدموع !

– ومن ثم ؟

– لا شيء إذ علمتُ يوماً أنه غادر القرية إلى ما وراء الجبل إثر شجار تافه .

– والثاني ؟

– أستاذي فى علم النفس ، فقد شعرت نحوه بنفس الحب ، كان قد تجاوز الأربعين من عمره ، أبيض شعره قبل الأوان ، كان يرتدى دائماً سترة سوداء وصدرية ملونة ، وكان أنيقاً بلباسه ، وكان فى صوته هذه النبرات التى تضفى على عذوبة حديثه هذه الموسيقى الجميلة . . . وعيناه المخمورتان تجعله دائماً كسابح فى الخيال ، وعندما كان يقرأ الدرس كنت أشعر أننى فى عالم آخر . . . كنت أظن نفسى وكأنى أسير فى ليلة قمراء على ضفاف نهر الغانج فى الهند أستمع إلى صوت قيثارة ، وكنت أغيب فى لانهايات بعيدة بين الفينة والفينة . . . لقد رأى هذا الرجل عينى الناظرتين إليه تدمعان فسكت ، ثم حدّق ملياً بتلميذته الباكية ، وكنت أنتظر حكمه ، وكان درسنا يومذاك فى « قابلية الهيجان والتهيج » ثم قال فوراً . أنتم تعلمون بأن دموعنا هى التى تحرس

أعيننا ، فهى ملح مركب بمقدار أربع عشرة درجة فى الألف من « كلور الصوديوم » العادى . . . فإذا دخل جسم أجنبى فى العين عمل إفرازات من طرف واحد فى حين إذا انتابنا حزن أو فرح أو أى عامل نفسانى يثيرنا فعندئذ تفرزان من الجهتين ، فلو تجردت العيون من الدموع لفقدت بريقها وصفاءها . فالرجل الذى أحببته كان يفكر بأن يجعل من عينى اللتين ذرفتا الدموع من أجله موضوعاً لدرس نفسانى .

هذان هما الجبان اللذان شعرت بهما .

• • •

كانت زليخا تروى لى قصة حبها بطور نصف حزين تخالجه السخرية ، وحين سمعت قصتها أصبحت لا أدرى أأضحك أم أتألم . . . وفجأة أرادتْ تغيير مجرى الحديث فقالت : أريد أن أقف على آرائك بحق المرأة ؟

– إن رأيى فى المرأة متناقض ، يتبدل بسرعة بين فترة وأخرى . . . فطوراً أميل إليها وطوراً أنفر منها ، أبثها إعجابى تارة ، وأنقلب عليها تارة أخرى ، تظهر لى فى يوم ما غريبة كأن الحب لم يلامس قلبها وكأنى لم أركع يوماً أمامها . وأتساءل : ألأجلها تثور هذه الخلائق ، يَقتلون ويُقتلون . . . كانت تعترينى هذه الحالات ، وقد تتراءى لى فى يوم آخر فى صورة

مزرية تبعث الألم فى النفس ، أنظر إلى وجهها بروح من الحيرة والرأفة ، ثم أعود فأتساءل ما هى العوامل التى تجعل النساء مداورات ومخادعات ؟ لماذا ينشأن هذه التنشئة ولا يرغمن على طراز من الحياة لا وهن فيه . . . لماذا يعروهن الضنى والهموم وقد تجملن بهذه الابتسامات السعيدة واللون الزهرى الرائع ؟ كيف تكون الحياة جميلة بدونهن لو لم يخصهن الله بالسحر والفتنة ؟

فى بعض الحالات كانت المرأة تخيفنى خوفاً مريعاً فأحاول الابتعاد عنها . . . إن الناس ترمز إلى الموت بجمجمة وعظمتين متعانقتين ، وهذا قبيح . . . أفليس من المستحسن أن يرمز إلى الموت بصورة امرأة جميلة ! !

تظاهرت زليخا بعدم الإصغاء إلىّ وكان بيدها سوط تخط به فوق الماء دائرة إثر دائرة . . . ولعلها لم تشأ أن أسكت فسألتنى : أى نوع من النساء يلائم ذوقك ؟

قلت : بين الثامنة عشرة والعشرين من عمرهن الغض ، الفتيات الجامحات اللواتى يشابه وجههن وجه المهرة ، ذوات الشفاه المليئة الناعمة والقدود الفارهة الرشيقة والأكتاف المرتفعة . . .

— حسن ولكن من الناحية الأخلاقية ؟

– إنى لا أقول إنى لا أستحسن النساء اللواتى يعرفن كيف يحرصن على سعادة الزوج ، ويدخلن البهجة والهناءة على قلب الرجل ، الأنيقات اللواتى لا تفارق الابتسامة ثغورهن ، الهادئات الأعصاب غير المقطبات الوجه ، اللواتى يتأنقن ويرقصن أو يغنين من حين لآخر ، أما اللواتى يكن كالأسماك اليابانية ، أو الأكواخ الصينية ، أو كطيور النحل ، وغير ذلك من هذه الدمى والألاعيب التى تعتبر زينة وترفاً فتبدو العناية بهن وبزينتهن مضنية ، كما أن الفائدة المرتجاة منهن لا توازى الجهد المبذول فى سبيلهن .

– إذن فى أى زمرة من النساء تضعنى ؟

– الآن لست بواحدة ممن ذكرت ، فاسمحى لى بوقت كاف ، لأختبرك جيداً ، فعندما أتعرف إليك سأقول رأيى ، ذات يوم ، بكثير من الصراحة ، فأنا وإن كنت رجلا بطىء الاندفاع والتهيج ، فليس معنى هذا أن قلبى قد خمدت حرارته حتى أخفى ما يخالجنى من شعور .

١١

مررنا بعيداً عن القرى اليزيدية فى ممرات ضيقة ، إذ كانت زليخا تأبى إزعاج القرويات اللواتى كان من عادتهن

كلما شاهدنها أن يرتمين على أقدامها ويقبلن كعب حذائها . . .

ارتفعنا كثيراً فوق الجبل إلى أن أحاطت بنا الغيوم من كل جانب وحجبت عنا مناظر الأرض فصرنا نظن أنفسنا صاعدين إلى السماء ، وكأن الخيل تطأ بأقدامها رغاء الغيوم وتسبح فيها سبحاً تلتذ به الأعين . . .

• • •

ثم عدنا إلى الحصن فأصدرت زليخا بعض الأوامر إلى رجالها ، وأحسست على إثرها بجلبة وحركة طفيفة ، ثم بعد تمتمات وروحات وجيئات أتوها بمفتاح كبير يحملونه باحترام زائد .

قالت زليخا : سأريك الودائع المقدسة . إنها لم تجمع إلا بعد صعوبات جمة .

وهبطنا درجاً منتصباً أمام أحد أبواب « الصالون » المفتوح على الدهليز . وفى نهاية الدرج باب من الخشب مغطى بنجوم من حديد . وكان الباب موصداً بقفل كبير ، ففتحته زليخا بالمفتاح المقدس الذى كانت تحمله .

ولما صرنا داخل المتحف كان أول شيء وقع عليه ناظرى فى تلك الغرفة الواسعة شمعات طويلة مشتعلة قائمة فوق شمعدانات مزخرفة ، وفى وسط الحجرة علم حوله شمعدانات صغيرة تحيط به من كل جانب ، وفى أعلى السقف مبخرة مزخرفة

ترسل أمواج البخور . وبذا كانت القاعة كثيرة الشبه بمقبرة أو كنيسة أو دير ، أمعنت النظر فرأيت فى أعلى العلم تمثالا على هيئة الطير لم أشك فى أنه من الذهب ، إلا أنه صنع صائغ جاهل لا يخفى جهله على أعين الناظرين فقد أراد أن يجعله شبيهاً بالطاووس فلم يوفق فجاء تمثاله ممسوخاً .

أما العلم فكان من الحرير ، مطرزاً بخيوط من القصب . والغريب أن أمام هذا الرمز المقدس سريراً نحاسياً صغيراً ومطرقة مدقة (هاون) ، ولكن الأغرب من ذلك كله ، والذى لم أشعر به لأول وهلة ، وكان يزيد الغرفة رهبة هو تلك الأجواخ السوداء التى تغطى الجدران .

التفت ونظرت إلى زليخا فرأيتها قد لوت رأسها قليلا ، وربطت يديها ووجمت لا تبدى حراكاً . وكان نور الشمع يلمع بين الفينة والفينة ويتلاعب به الهواء فترتسم على وجه زليخا رسوم هيروغليفية تزيد ذلك الوجه غموضاً وإبهاما .

شعرت بأنى أنظر إليها فلفتت نحوى عينيها الجميلتين ، وقرأت فيهما إحساساً عميقاً وحناناً وشفقة . ثم اقتربت منها وطوّقت خصرها النحيف فشعرت بخصرها يتراخى شيئاً فشيئاً ويزداد ثقله على ذراعى حتى اضطررت إلى مضاعفة المقاومة . وخلت أن الطاووس الذهبى المطل علينا من أعلى اللواء اليزيدى

سيرسل فى تلك الآونة صيحة وجلبة تملآن المتحف . . . .
جعلت ذراعى اليسرى تحت ركبتيها ، فأصبحت زليخا فوق
يدى مضمومة إلى صدرى ، ثم سرت بها قاصداً الدرج ،
ولما صعدت بها بضع درجات ، وخرجت من تلك الظلمة إلى
مكان منير طبعت على جبينها الناصع البياض قبلة ثم أنزلتها
إلى الأرض . فقالت لى وكأنها تصحو بعد إغماء : شكراً إن
رائحة البخور ودخان الشموع قد أثقلا رأسى .

. . .

تناولت طعام الغداء وتمددت فوق سريرى مسترسلا فى
تفكيرى وتخيلى فرأيت الباب يفتح بتؤدة دون أن يطرق ، وكان
الداخل هو الشيخ شمعون ، نظرت إليه فإذا عيناه كعادتهما
شاخصتان بالأرض ، ويداه فوق سرته ووجهه شاحب ، غير
أننى لحظت فيه لأول مرة شدة الجمود والتقطيب وانعدام الحركة
والروح . . . . فهل غفوت كثيراً قبل دخوله أو غفوت قليلا .
ذلك ما لم أستطع أن أتأكده بالضبط ، وكان فى الغرفة نور
لا يشبه غبش المساء ولا سفور الصباح ، بل كان نوراً عجيباً
يقطع كل رغبة فى التكلم أو الحركة !

تقدم شمعون وجلس ساكتاً أمامى على الأريكة المقابلة ،
فخلته يجلس فوق صدرى ويزهقنى بثقله ، ثم لفت إلىّ

نظره فرأيت لأول مرة عينيه . لا بد أن هذا الرجل به شيء . . .
به تغيير أو نية سيئة . كنت أقول ذلك فى نفسى ، فإن جيئته
الآن ليست ودية ، وأعلم أن المسدس فى جيبى الخلفى غير
أن الانحلال الذى أصابنى على إثر ذلك منعنى من رفع
يدى . . .

– أتيت لأكلمكم !

هل قال شمعون ذلك ؟ إننى أشك ! إنه يفتح فاه ولم
ينبس ببنت شفه ! إخالنى أفهم ما يدور فى ذهنه من الأفكار ،
وقد أخذت تجول آنئذ فى خاطرى تلك الريبة التى شعرت
بها منذ اللحظة الأولى التى التقيت به فيها . وفجأة سمعت
شمعون يقول : لقد آن الأوان لتعلموا الحقيقة والواقع ، كفى ،
يجب أن نسدل الستار على هذه الرواية المختمرة فى مخيلة
زيلى . . . إن كل ما أطلعتكم عليه وأخبرتكم به من تأسيس
وطن قومى لليزيديين ، أو كونها بنت يزيد ، أو قصة الأمير
على ، كل ذلك محض أوهام وتصورات لا تمتّ إلى الحقيقة
بصلة . إن زيلى مجنونة فاقدة الشعور !

لم أعد أستطيع أن أبدى حراكاً ، وقد أصبحت فى شبه
إغماء ، وهو لا يزال يتابع حديثه : وأنا لست الشيخ شمعون ،
والسنيور الفونسو لم يمت وهو أمامكم حى يرزق !

ـ إذاً أنت والدها ؟ !

إن الصوت الذى كنت أجيب به الشيخ شمعون لم أكن أسمعه أنا ، ولعلنى لم أسأل هذا السؤال . . . . فكأن فى ضوء الغرفة قوة خفية تذيب الأصوات وتقطع الحركات .

ـ كلا ! لست أباها . . . . أنا زوجها !

جفّ حلقى وخفت صوتى وانقطعت أنفاسى وشعرت بضيق فى صدرى . . . وخلت أن شمعون يهزأ بى ، فاعترتنى الرجفة وقلت فى نفسى : ليتنى قوىّ فأستطيع أن أزيل تلك النظرات المخيفة والعبوس من وجهه أو أمحو ذلك الوجه من الوجود !

ـ إن جنون زيلى ذو صبغة دينية ، فقد حدث أن وقع بيدها كتاب يبحث عن اليزيدية جعلها تتصور نفسها « بنت يزيد » ، ومن مذهب اليزيديين . وقد التزمت حيالها جانب الموافقة والاستحسان ، فدار فى خلدها أنها يجب أن تكون بحق من سلالة اليزيديين ، وصورت لها مخيلتها ما فى ذلك من الفخفخة وأبهة السلطان والجاه ، فكنت أشاطرها الرأى والتفكير ، وأشايعها وأماشيها فى خيالاتها وأوهامها ، وأسير طوع شعورها المريض ، فمهما تطلب ومهما أرادت وافقتها عليه . وصرت بذلك خادمها بعد أن كنت زوجها . وتعلمنا اللغة الكردية ، وابتعنا قصوراً فى البلاد الأجنبية ، واستأجرنا رجالا

وخدماً ، وهكذا فأنا أخدع وأنخدع فى آن واحد !

شعرت بحاجة قوية للتكلم بعد أن كنت لا أستطيع أن أتفوه بأية كلمة ، وكان تحديقى بوجه ذلك الشيخ مع انتصابى فى مكانى وتنبه حواسى يجعلنى أكثر مقدرة على الكلام من ذى قبل ، فقلت : لم لم تطلعونى على ذلك من قبل ؟

— كى تنخدع زيلى وتشعر بصحة تصوراتها . . .

— وما الذى يجب أن أصنع الآن ؟

— ستداوم على متابعة الخداع . . .

— إذن لم تحدثنى الآن بهذا الحديث ؟

— لأنى أيقنت أنك لن تستطيع أن تتركها .

وأحسست بجو الغرفة يزداد ظلاماً وحلكة ، وبنفسى فى حالة بين الحزن والفرح ، وبأنى أريد أن أصرخ : « أواه يا زيلى ! مسكينة مسكينة أنت يا زيلى ! » وشعرت بحاجتى إلى أن أبكى وألطم خدى ، لكن عينى قد جفتا واعترى رأسى صداع شديد واضطربت لهول الصدمة اضطراباً كاد يغيبنى عن الوجود .

نهض شمعون . . . ها هو ذا شبحه يقترب منى . . . ها هو ذا قد استطال وعظم ونحل جسمه وثقل . . . أصبحت تحت وطأة جسمه ، ولا سبيل إلى التملص منه إلا أن أقف

وأرمى به إلى الأرض ، وفجأة اندفعت صائحاً : زيلى !
زيلى !

وفى تلك الظلمة الحالكة التى أخذت تتكاثف حولى
لم أر سوى نفسى ، ووجدتنى وحيداً فى غرفتى عند ما زال
ذلك الكابوس المخيف عنى ! عندئذ شعرت بفرح زائد
لا يوصف لدى رؤيتى شكل الدنيا الحقيقى ، ونهضت من
السرير وقذفت بنفسى إلى خارج الغرفة أبحث عن زليخا من
جديد لأزيل صورة زيلى المجنونة من ذهنى ، وأبحث عن الشيخ
شمعون لأزيل صورة السنيور الفونسو . . . وها أنذا أركض
فى البهو غير مبال بالعرق الذى يتصبب من جبينى ولا بركبتى
اللتين كانتا ترتجفان . . .

كان الشيخ شمعون أول من رأيت ، فأشار كعادته بأدب
وسكون إلى كرسى طويل كانت زليخا متمددة عليه ،
مستسلمة لنوم عميق ، وقد سقطت الجريدة التى كانت تقرأها
عن ركبتها وافتر ثغرها عن ابتسامة لطيفة وهى نائمة .

التفت فرأيت شمعون يبتعد فى البهو بخطوات خفيفة واسعة
لا يسمع لها صوت !

١٢

لا أدرى هل أنسى تلك الساعات السعيدة التى قضيتها فى النزهات على ظهر الخيل وفى الصيد ، وفى العودة من هذه النزهات ومشاهدة أضواء القصر من بعيد ؟ ! بل لا أدرى هل أنسى لذة جلوسنا حول مائدة واحدة لشرب الشاى ؟ ! إن ذكرى زليخا لن تفارقنى أبداً !

ولكن تلك الأيام لا تفتأ تتناقص ، ولم يبق منها إلا القليل ، إذ بعد شهر واحد سيكون بيننا افتراق أبدى ، وهأنذا أتصور نفسى منذ الآن عائداً إلى قريتى فى تلك الطرق الصحراوية التى كنت قطعتها مع زليخا ، فكيف أستطيع أن أتحمل تلك الصدمة العنيفة التى أحسب لها منذ الآن ألف حساب .

وكنت قد ألمعت لرفاق فى رسائلى عن مشروع إنشاء وطن قومى لليزيديين ، فنهم من لم يجب ومنهم من أجاب ، فتحدث عن قضايا أسرع وأحدث . وقد جاءنى فى كتاب أحدهم التهكم الآتى : «وأنت كما أرى تريد أن تكون لورد

بلفور لليزيديين ! » الحق كل الحق معهم ! إنهم يجهلون زليخا ، ولو كنت أنا مكانهم لأجبت الإجابة نفسها .

والتقيت صباحاً بزليخا فبادرتنى بقولها : هل تعلم أننى أود الرجوع اليوم عند الظهر إلى القصر ؟ . . . أتفكر فى طعام فى البرية ؟ فى هذه الضواحى القريبة بين أشجار النخيل نتناول طعام الغداء على مائدة المختار ، فهو نبيل وكريم وبيته رحب وقد أرسلنا إلى القرية من يخبره بقدومنا . وكان الجو قد تحسن وانقشعت الغيوم وسكنت الريح وبدت زرقة السماء صافية . . . فاستبشرت خيراً لأننى لا أحب الرياح فى البرارى ولا الأنواء المغيمة التى تظهر الطبيعة كأنها فى حرب فتصطدم السحب بالجبال وتهب الجبال لتمزقها وينشب بين الأشجار وأغصانها وأوراقها مشاجرة عنيفة ويتدافع الضوء والظل كديكين أحدهما أبيض والآخر أسود وقد انتصبا للبراز ، فحيثما نظرت فى السماء أو فى الأرض رأيت صراعاً هائلا فى الطبيعة . . . وأما إذا هدأت الرياح فإن الطبيعة تصبح كأنها جميلة ، حبيبة ، مفكرة ، شديدة الشبه بمن أصابه الندم ، فى حادثة أو خطيئة ارتكبها !

لم يستقبلنا سكان القرية لكنهم أطلوا علينا من شرفات منازلهم ، وقد علمت بعد ذلك أنهم قد أمروا أن لا يقوموا بأى

تشريفات نحونا ، اعترتني الدهشة لدى دخولى أول غرفة من غرف دار المختار ، فقد كان يملأ الزاوية الرئيسية من تلك الغرفة سرير أسود اللون مرتفع القوائم ، فوقه غطاء حريرى مزركش أحمر ولحاف من الأطلس ، وأصناف من الزينة تظهر السرير كأنه مرقد ولى أو نبى كريم !

وبدا ذوق أهل البيت وظرفهم لأول وهلة فى عدم فسحهم المجال للعجائز بالاختلاط بنا ومجالستنا ، فكانت اللواتى أتين لاستقبالنا والاحتفاء بنا كلهن شابات صبيحات الوجه ، نحيفات الخصر ، مدورات الوجوه ، يسبين العقول أما سيدة البيت فقد كانت فى غنى عن استعمال أدوات الزينة وقد لفت نظرى رجلاها الجميلتان اللتان كانتا داخل خفين بكعبين طويلين . وبينما أنا أنعم النظر فيهما إذا بها تخاطبنى قائلة : « نحن لسنا كالقرويين الذين تعرفونهم ، نحن قريبون منكم » . فخطر لى أن زليخا لو لم تكن هاجرت إلى الأرجنتين لما كانت اليوم إلا واحدة من أولئك الفتيات ، تعيش فى ناحية من نواحى جبل سنجار ، وتتزيا بزيهن وتسير سيرتهن .

التفت إليها فرأيتها تبحث فى الغرفة عن مكان تتمدد فيه لتزيل عن نفسها تعب السير وعناء التنقل فلا تجده ، وتتحدث باللغة الكردية وهى جالسة جلسة غريبة مما يدعو إلى الدهشة والاستغراب ،

لكننى ما زلت متأثراً بفكرتى السابقة أتصور زليخا كإحدى هؤلاء القرويات ، ترتدى سروالا من الأطلس وحزاماً من المخمل وترسل شعرها على شكل ضفيرتين فوق ظهرها. وكنا نجلس على كراسى مرتفعة نصغى إلى أصوات الديكة التى تتصاعد من قريب ومن بعيد فنشعر بنشوة وسرور وسط ذلك الهدوء . ولم يكن لكلينا رغبة فى التحدث إلى صاحبه . . . إلا بعض النظرات التى كنا نتبادلها بسكوت تام ، فتقوم مقام أجلى العبارات وأحر التنهدات وأصدق المراسلات والاعترافات ، نحن نتلاقى بأعيننا ونتكلم بهما ونتحاب !

وبدا لصاحب البيت أن يحدثنا فقال سائلا : هل تتناولون شيئاً من المشروبات قبل الطعام ؟ !

خشيت أن يأتينا بعرق عكر مشوب بصدأ الصفائح وكسارات الشمع ، فأجبته إن لدى شيئاً من الكونياك سأشربه . غير أنه غاب لحظة وعاد يحمل زجاجة مختومة من « الوسكى » .

ولعبت الخمر بنا ، وتشعبت الأحاديث بيننا ، وتزاحمت فى رأسى الخواطر والصور ، وأنا لا أكاد أحوّل بصرى عن زليخا !

وشرعوا يعدّون الطعام ، فإذا بقصعة من الثريد عليها ديك هندى محمر يحملها اثنان ويضعانها فوق منضدة قليلة الارتفاع ،

ثم صفت حولها صحون صغيرة فيها أصناف المأكولات .

ثم شبعنا ، فنهضنا من حول تلك المائدة التى قامت بإحضارها ست يزيديات كن حولنا كالعذارى اللواتى ينذرن للدين فى معابد الهند ، وكانت سحائب دخان السجائر الإنكليزية تملأ سماء الغرفة وتعطيها جواً كجو « البارات » الأروبية !

ثم خرجنا من بيت المختار مودعين وامتطينا الجياد ونحن بهذه النشوة والسرور ، وكان الفرسان الذين رافقونا فى المجىء قد فهموا أننا نفضل سيرهم بعيدين عنا فتخلفوا قليلا وسرنا جنباً إلى جنب وأمامنا الشمس تستعد للغروب وراء الأفق .

وفجأة خطرلى خاطر أفسد على صفوى وأطار نشوتى ، فقد شعرت عندئذ برغبة فى الإفصاح عن مكنون فؤادى ومكتوم رغباتى ، وكان الليل يقترب ويبعث فى النفوس لوعة وأسى ، نحن فى ساعة تذكر الإنسان بذنوبه وتشعره بحاجته إلى الاعتراف والإيمان وتحكيم الوجدان . ولكننى لم أكن كذلك منذ هنيهة ، فقد كنت متصابياً أريد أن أنتشل زليخا من على ظهر حصانها وأتناولها بين ساعدى وأطير بها ، وكنت أتصورها ملتفة على عنق ملصقة شفتيها بشفتى وصدرها بصدرى أجوب بها فى الفضاء وأتصور مشهد فرار عاشقين وهما على هذه الحالة ، أما الآن

فقد عدت إلى صوابى وانمحت من مخيلتى تلك الصور السطحية وأصبحت فى حالة خشوع وخضوع ، وقلت : لدى ما أود أن أقوله لك .

ـ لا حاجة . . . إننى أعلمه !

وصفقت بسوطها فى الفضاء ، وشعرت بفخذها يلامس فخذى فى أثناء المرور ، ثم فجأة غمزت جوادَها بطرف رجلها واستعجلته فغدا يعدو مسرعاً ؛ وتبعتها ، فلما أصبحت على مقربة منها لفتت رأسها وبوجه منقبض ولهجة آمرة قالت : اسكت . لا أريد أن أستمع .

فسكت وسرنا صامتين مطرقين برؤوسنا إلى الأرض تتعثر بنا الجياد وهى سائرة ببطء كجاب من جباة المالية يرافقه دركى فى أثناء عودتهما من إحدى القرى . . .

١٣

استمرت نزهاتى مع زليخا على ظهر الخيل بعد تلك الحادثة وصرت أشعر بالطلاقة والانشراح كلما أتيح لى أن أنفرد بها وأجلس أمامها وجهاً لوجه وأبادلها الأحاديث وأمازحها

وأجاملها . إن تلك اللذة التى كنت أشعر بها فى المجاملات والمحادثات والأخذ والرد فى حياتى اليومية ، تلك اللذة التى اختفت عنى وغابت منذ أمد بعيد ، أحسست بها اليوم تعود إلىّ شيئاً فشيئاً كلما اجتمعت ببنت يزيد ، لقد غدونا صديقين متحابين نمازح ونتنادر ونتشاكى الهموم ، ونتحابّ بلا ريب ! نشعر بطول البعاد كلما افترقنا فتخلق هى حجة تافهة لتبحث عنى وتجدنى وأنا أركض إليها ! أشعر بميل شديد إلى زليخا لا يرتوى ولا يمكن ريه .

وبعد أن أكون ، قد قضيت ساعات طويلة بقربها أنظر إلى وجهها وأتمثل فى عينيها طهارة الحب وصفاء المودة ، أركن إلى غرفتى فأقبع فيها وحدى بضع دقائق ، أشعر على إثرها برغبة ملحة وشوق متجدد للاجتماع بها ، وتثور فى جسمى ، عاطفة لا أفهم منها سوى الشعور بميل شديد إلى زليخا ، إن هذا الجوع الذى أحسه فى نفسى لشبيه باضطراب مدمن على الخمر — لكنه اضطراب ماكر خداع ! !

وهكذا كانت الأيام تمضى سراعاً ونحن منفردان فى ذلك الجبل المرتفع لا عمل لنا ولا تسلية ، وكأن أوراق التقويم السنوى لم تكن تنتزع مرة فى كل يوم بل مرة فى كل ساعة .

وسيأتى يوم لا بد لى فيه من اتخاذ قرار حاسم وموقف

صريح ... ولو أنها لم تسكتني في أثناء عودتنا من تناول الغداء في القرية لكنت غيرت منذ زمن بعيد مجرى حياتي معها . قبعت في غرفتي داخل تلك القلعة واستسلمت لنفسي وعواطفي وشعوري وأخذت أحلل وضعي الوخيم الذي سأؤول إليه لا محالة ، وأبحث عن طريقة أسلكها للخروج من ذلك المأذق ، وأدخن سجائري تباعاً ، وكان الجو خارج الغرفة ملبداً بالغيوم ، وشعرت كأن هذه العاصفة التي شبت منذ هنيهة في السماء والأرض قد أيقظتني من نوم لذيذ ! كنت أرى فيه حلماً مضطرباً ، وفي ذهني ميل إلى إهمال هذه الأفكار ، وفي جسمي رغبة إلى التمدد والاستراحة من عناء هذا التفكير المتواصل !

لقد كان على أن أقول لزليخا — منذ اليوم الأول الذي تعرفت فيه إليها : كلا ، إن مشروعك محض خيال وأوهام ، فلا يمكن أن نتصور دولة تقدم على مشروع عقيم مضطرب كهذا ، وعلينا إذن أن لا نخدع بعضنا وأن نتفارق .

كنت مصمماً على أن أقول لها ذلك في تدمر ومن ثم أعود ، ولكنني لم أستطع ، ولو قلت ذلك لما توصلت إلى اكتشاف تلك الأسرار ، ودراسة تلك العقائد ، ورؤية « بنت يزيد » الفاتنة ترتع بخيلاء بين ذويها وأقاربها وأبناء

عشيرتها ، ولما رأيت الشيخ شمعون ، ولا مررت بتلك الصحارى القاحلة الشاسعة ، ولا دخلت ذلك القصر الفخم . نعم ، لو كنت عدت من تلك الساعة لما رأيت كل ذلك .

لم أكن أصدق أنني حى أعيش ، فكأننى بين الحياة والموت أمر فى دهليز ضيق وأسعى لأتمم ما كتبته الأقدار على جبينى ، وبعد ذلك فإما نور غير متناه وإما ظلمة حالكة دامسة ، ولعل أصغر حركة أو أقل إشارة تبدر منى كانت تكفى لتهزم زليخا وتبعدها عنى . . . ثم أفكر ملياً فأرى أن تغيراً عظيماً طرأ على عاداتها وطبائعها ، فقد امتزجت كل الامتزاج بأهل القصر وزالت الكلفة بينها وبينهم ، وعدت لا ترى أى مانع من مقابلتهم صباح كل يوم فى الطابق الأسفل من القصر بدون سابق ميعاد ولا استئذان . . . ثم أخذت تشعر بملل من هذه الحياة فكنت أسمع باب غرفتى يطرق من آن إلى آخر ، وإذا بها تدخل وتتخذ مكانها أمامى ، ثم تسترسل فى كلام فارغ لا ينتهى ، ومحادثة تنم عن شوق زائد ، ورغبة مضطربة تدل على حب عميق تأصل فى نفسها ، ولولا ذلك لما اتخذت المداعبة واسطة لإطالة المقابلات والمحادثات بينى وبينها ، كان ذلك يظهر لى جلياً فى عينيها كلما نهضت مودعة ، إذ ألحظ فيهما ظلا خفيفاً لم تكن لتستطيع

إخفاءه ، فأهجم على الكرسى الذى كانت تجلس عليه وأضمه إلى صدرى صائحاً : « إنها تودنى ، إنها تحبنى ، إنها تريدنى ! »

وأخيراً عرض لها ما قلب أعمالها رأساً على عقب ، فبينما كانت صلاتنا الغرامية تتحكم شيئاً فشيئاً وتبدو فى حركاتنا وسكناتنا ، وإن أخفيناها فى كلماتنا ، كانت الأقدار تنصب لنا شباكها بمقصها الحاد لتقطع كل صلة بيننا ، فقد أعلمنا أحد أصدقائنا من الموصل أن السلطة الإنكليزية قد أخذت تشتبه بنا ، وذات يوم رأينا ضابطاً مفتشاً من رجال التحرى يرتدى ثياباً مدنية يدخل القصر .

لم أجد الاختفاء عن الأنظار موافقاً ، بل تناولنا طعام الغذاء معاً ، ولما حان وقت الافتراق ، اقتحم الضابط البريطانى غرفتى وسألنى عما إذا كنت سأتحمل مشقة السفر إلى الموصل لإتمام معاملة السفر فى نهاية الأسبوع أم لا ؟ فهمت حالا أن لديهم الأخبار المكتومة وأنه يحتمل كثيراً إخراجى من البلاد بعد أسبوع واحد ، عندئذ أخذ الشك فى الشيخ شمعون يملأ نفسى . ولكن ما الذى يعصم زليخا من أن يأتيها الدور ؟

بعد يومين تنتهى المهلة فإما أن أذهب إلى الموصل وإما

أن أعود إلى سوريا . . . ولكننى أرجح الثانية . كان البرق يلمع فى أرجاء غرفتى من حين لآخر فينيرها . ارتديت قبائى وتناولت شمعداناً مضيئاً بيدى وسرت فى الدهليز هائماً على وجهى والبرق يلمع فيخطف عينى ، ولم أعد أبصر شيئاً أمامى ، ولما صرت فى منتصف الدهليز أبصرت شمعداناً آخر فى البهو المقابل يحاول الوصول إلىّ ، فظننته لأول وهلة صورة معكوسة لى . . . ولكننى تبينت تحت تأثير البرق المتتابع أنها زليخا ! . . . وقد لحظتنى هى الأخرى . ثم فجأة أخذ الشمعدان ينسحب بتؤدة ويتوارى . . . لقد دخلت غرفتها ، عندئذ أطفأت شمعتى ووضعت الشمعدان على الأرض وهرولت مسرعاً نحوها ، فتقابلنا إثر ضوضاء بسيطة ثم قالت : النوم غير ممكن . فقلت : فلنسهر ! فقالت : ولا مجال للكلام . فقلت : فلنسكت !

فنظرت إلى وفى عينيها ما معناه : « إذن ماذا نفعل » فقلت : « لنقف جنباً إلى جنب ، أو أجلس بأدب فأشاهد لمعان البرق فى وجهك ولا نثرثر أبداً ، إن عاصفة كهذه لا تدع محبين بعيدين عن بعضهما فى غرفتين نائيتين ، واجتماعنا يهدئ أعصابنا .

نحن الآن فى عتبة غرفتها وهى واجمة لا تبدى حراكاً ولا تقرر شيئاً فخطر لى أن أدفعها إلى داخل الغرفة ، فدفعتها

بلطف من كتفها فأحست أناملى بنعومة اللحم العارى تحت الثوب الحريرى الرقيق الشفاف الذى كانت ترتديه . ثم قالت : ادخل !

لم تكن غرفتها تختلف عن غرفتى من حيث الشكل والأثاث إلا بوجود منضدة مدورة للزينة فى إحدى زواياها ، أما هواؤها فكان عبقاً برائحة الشب العطرى المندى . وفى السرير كانت الوسائد مبعثرة والأغطية متداخلة وملقاة هنا وهناك تدل على أن زليخا لم تجد إلى النوم سبيلا أو لم يجد النوم إليها سبيلا وأنها قضت الليل بالتقلب والتلوى ، ولم تتمكن من الإغفاء ، ولا شك فى أننى عند ما رأيتها منذ هنيهة فى الدهليز تحت لمان البرق كانت تقدر لقائى .

ألقت بنفسها فوق إحدى الأرائك ، وكان البرق لا يزال يلمع بدون انقطاع ، والمطر يهطل والرعد يقصف ، ظللت واقفاً أمامها منتصباً وهى صامتة تفكر ، وأنا أنظر إليها ، ثم أخذت العاصفة تهدأ شيئاً فشيئاً والضوضاء تخف قليلا قليلاً ، فإذا بها ترفع رأسها وترمقنى بنظرة فاحصة من رأسى إلى قدمى وتقول : يمكنك أن تقول لى ماذا أحضرك ؟ فإننى أنتظر ذلك منذ عودتنا من تناول الغداء فى القرية ، لقد كنت هادئاً مرحاً محافظاً على رزانتك لدرجة تكفى للدلالة على غايتك

ومقاصدك ، فهل تود الرحيل ؟ أليس كذلك ؟

تلفظت للمرة الأولى باسمها فقلت : زليخا ! وجلست قرب موضع رجلها على البساط .

فقالت : إننى مصغية !

– زيلى ! هل تعلمين كيف يعرف الفيلسوف ليبنز الحب ؟ إنه يقول : الحب هو تذوق سعادة المحبوب ، وأن يجعل المحب غايته الحقيقية إسعاد المحبوب ، إننى أحبك ذلك الحب ، فالذى أبغى هو أن أرى سعادتك وأشعر بها لأحس بسعادتى الشخصية وأريد أن تستفيدى من النعمة التى يسبغها عليك جمالك وصباك وغناك – تلك النعمة النادرة الوجود ، وعليك أن تأخذى نصيبك وافراً من الحياة وأن تتجرعى كأسها حتى الثمالة .

– بماذا توصينى أن أعمل ؟ !

– الأرض ممتدة أمامك بكل ما فيها من بهجة ونضارة ، فهناك الآن فى هذا الشهر سواحل قائمة فيها الحمامات البحرية بأمراحها وألعابها ، وهناك فى اليابان قد تفتحت أزهار الكرز ونسجت فراشات القز حريرها على أشجار التوت ، وعلى شواطئ الغانج يجرى صيد النمر ، وفى الريفيريا تجول عربات

الكرنفال فى الشوارع ، كما بالإمكان مشاهدة بزوغ الشمس وغروبها فوق جبال سويسرا وقرب بحيراتها ، وفوران المياه الحارة فى جزيرة إسلندا ، وهنالك أيضاً « الصالات » الغنائية العظيمة التى تحتدم فيها الآن جولات الرقص المختلفة وتتصاعد الأنغام الموسيقية وتلمع الحلى والمجوهرات لمعان البرق الذى نشاهده نحن الآن !

– لنذهب إذن معاً !

– وهنالك أيضاً حب منتظر . . . حب لائق موافق سيهز وجودك وروحك ويعصف بك عصفاً ، وهو حب مضن لكنه عذب لذيذ !

وأحسست بيد زليخا توضع بلطف فوق رأسى ، وتلامس أناملها شعرى دون أن تؤثر فى تنسيقه أو تغير شيئاً من طريقة ترجيله .

– إن أمثالك من النساء اللواتى لهن خصائص تجعلهن لائقات بالحب قليلات الأثر والوجود فى العالم ، فلديك عدا معجزة ذلك الجمال الخارق التى تبعث حبك فى النفوس إلى درجة العبادة والجنون جمال روحانى نادر ، وذكاء حاد مدهش ، وثقافة واسعة عميمة ! إنك على جمال طبيعى وخلق حسن ، لا بل إنك الجمال والحسن ، وإن أشد الضربات التى تلقيتها

فى حياتى ، وربما كانت هى الضربة الأخيرة ، هى بعدى عنك ؛ يجب أن تعتقدى بصدق كلامى وإخلاصه وأنت تفكرين بذلك .

وأسندت رأسى بهدوء إلى ركبتها وقلت : ستتركيننى حزيناً مغتماً وتغادريننى ، وقد ذبلت تلك الزهرة النضرة فى فؤادى وأظلمت تلك الشمس المشرقة على روحى ، وجف ربيع حياتى وسأعيش تائهاً هائماً ، وشعرت وأنا على تلك الحالة من الذهول مسنداً رأسى إلى ركبتها بدمعة صافية رائقة تسقط على وجهى سقوط ذلك الرذاذ الذى ما زال ينسكب خارج الغرفة وتتحطم فوق خدى وتسيل فتختلط بفمى من أطراف شفاهى . لقد شربت دمع زليخا ! . . .

تناولت رأسى بين يديها ولفتت وجهى إليها فأصبحت عيناها واجتين فى عينى وازداد ذهولى فأصبحت أرى الدنيا على ألوان مختلفة وأشكال متنوعة ، وصرت أسمع صوتاً خافتاً عميقاً كأنه صادر عن مسافات بعيدة ، لم أسمع مثل هذا الصوت من قبل ولم أعرفه ، إنه الصوت الذى كنت سمعته من النساء اللواتى يختلجن فى حالة الاستسلام . . . إنه نوبة هيستيرية :

— لنذهب معاً ، لنذهب معاً !

وضغطت بيديها على رأسى وضمته إلى صدرها فأحسست باهتزازه واختلاجه كأنها تود إحياء ميت قد فارق الحياة منذ ساعات . . . .

ـ لنذهب معاً ، لنذهب معاً !

انتابتنى أخيراً حالة نفسية غريبة فأخذت أقبل ركبتيها وساقيها وأشعر بلذة غريبة وشوق متقد .

وكان ذلك الصوت لا يزال يردد : لنذهب معاً ، لنذهب معاً !

أو لعله لم يكن يردد ذلك ولكنى كنت أسمعه ، وسأسمعه ما حييت !

١٤

من عادتى أن أتشاءم من وداع صديق أو قريب يسافر فى باخرة تقلع مساء ، فإن صورة خيال الباخرة العابس وهى تشق طريقها فى ظلمات البحر اللجى لا تنمحى أبداً من مخيلتى . أقلعت الباخرة التى ركبتها زيلى ، من بيروت، فى مساء كهذا ، وفى نيتها أن تزور الهند والصين والجزر اليابانية ، وأن تعرج من هناك على فلبازيرو عائدة إلى بلادها ، تلك

كانت خطتها فى الرحيل ، لكن من يدرى كيف ستغير الصدف مجرى سياحتها ، ففى الباخرة ضباط بحريون شبان . وإنه لتخطر على بالى رواية كان نشرها الكاتب ميريام هارى تحت عنوان « جزيرة الشهوة » صور فيها ساحات الغرام فى جزيرة سيلان والليالى البيضاء التى قضاها بطلا روايته فى أحد الفنادق ، فتعترينى الغيرة على زيلى وأحترق فى صميمى وأتصورها فى مخيلتى لاعبة عابثة لاهية على شواطئ البحار فى الهند والصين وفى مرتفعات الجبال ، لا شك أنها ستنسانى عندما تتجول فى البساتين التى تتصاعد منها روائح الموز والأناناس والقرنفل والبهارات ، وعندما تسبح على البلاجات الموحشة ! . . . كان كل ذلك يمر أمام مخيلتى بوضوح .

• • •

لتبق الشموع مشتعلة فى غرفة قصر يزيد الحجرية التى تخفى علم يزيد، فلعل زليخا تعود يوماً إلى هناك ، ولكنها ستكون بلا شك قد بلغت سن الخمسين وأشرفت على الهرم والذبول بعد أن قضت حياة مملوءة بالمفاجآت الغرامية . . . أما أنا فأكون قد غادرت هذه الدنيا الفانية وتخلصت من آلامها :

ليتنى لم أعد تلك الليلة العاصفة إلى غرفتى بعد أن استعطفتنى وبكت لى وأصرت على أن نذهب معاً ، وقبلتنى من عنق

وصدرى ! ليتنى لم أغادر فى تلك الليلة المنحوسة ذلك الجسم البض ، بل ليتنى التصقت به وشممت روائحه الزكية العاطرة ولم أبتعد عنها أبداً ، إذن لصادقتها صداقة عاشق سعيد وقضيت قربها بقية حياتى . لو لم يتم ذلك الأمر ، ولو لم أنسحب من غرفتها لكنت اليوم أسير معها جنباً إلى جنب فى منتزهات لبنان الجميلة نتنقل من حقل إلى حقل ومن بستان إلى بستان ومن حديقة إلى حديقة . . .

ولكن لا ، فلأفرح بأننى سوف لا أرافقها ولا ألاقيها ، فبدلاً من أن أفترق عنها غداً ، وأشعر بمضض الفراق ، وأكوى بنار البعاد ، أرى أنه يحسن أن أقتلع نفسى منها وأبتعد عنها .

لو رافقتها لصرت أغار عليها من النسيم وأخشى على جمالها من نفسى ، ولأصبحت أهيم على وجهى فى الأزقة كالعشاق المجانين الذين ورد ذكرهم فى قصة الدهر .

نعم لو كنت قربها لأصبحت عاشقاً مجنوناً !

يجب ألا أنتهى إلى مثل هذه النهاية ! يجب على أن أتخلص منذ الآن !

لقد حضرت زليخا إلى غرفتى فى صباح ليلة العاصفة لما علمت أننى أعد حقائبى وقالت : إذن أنتم ذاهبون ؟

قالت ذلك بصوت خافت ، فلحظت الظل الخفيف

تحت عينيها ورأيت دموعها تنهمر على خدها الجميل ـ جمال أراه الآن ولن أراه غداً أبداً ، فشعرت أنا الآخر بمقلتى تمتلئان بالدموع وأخذت أتحدث إليها عن مخاوفى من الغد وهواجسه وآلامه وما سيعتريني من الأمراض والآلام فى المستقبل وأكدت عليها أن تأخذ نصيبها من الحياة وافراً . وأفهمتها بلهفة متهم يحاول أن يذب عن نفسه التهم ، أن مشروعها السياسى وإن لم يمكن تنفيذه فى الحاضر نظراً للأحوال السياسية القائمة فمن المستحسن إرجاؤه إلى وقت أكثر ملاءمة ومساعدة ، وأن عليها أن تمد أهل سنجار بالمال وأن لا تتأخر عنهم بمساعداتها المادية ، والمعنوية ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

ثم جاء الرحيل ، فقد أتتها الأخبار الأخيرة تفيد أن الإنكليز سوف يدعونها هى الأخرى إلى العراق ، وأن قرار ذلك سيجرى تنفيذه قريباً .

لم تتغير أوضاع الشيخ شمعون ولا أحواله بل ظل محافظاً على هدوئه المعهود وتلقيه الأوامر صاغراً ، إنه سيبقى فى سنجار ليكون على اتصال دائم بجماعة اليزيديين ويخبر سيدته على الدوام بما يتم لديهم ، كنت إخاله يرشقنى بالنار لأننى ما رأيت قط داخل عينيه .

اقتربت منى زليخا مودعة وهى فى قمرتها على ظهر الباخرة ،

وأسندت رأسها إلى صدرى وشهقت بالبكاء طويلا ، فشممت لآخر مرة رائحة الأعشاب النضرة والزهور العابقة ، ثم سارت الباخرة تشق عباب البحر وأنا أنظر إليها من ميناء بيروت تبتعد عن الساحل حتى أصبحت فوق خط الأفق شبيهة بنملة سوداء !

جلست على ساحل البحر فى « كورنيش » بيروت الصاخب الذى يعج بالأنوار الكهربية ، وجلس إلى جانبى الشيخ شمعون تحت ظل نخلة على مقعد من المقاعد العمومية وأخذنا نتحادث . ثم حانت منى التفاتة إلى صاحبى فالتفت هو أيضاً إلىّ ووقع نظرى فى نظره فرأيت لأول مرة عينيه . لقد طالما حسبت هاتين العينين مملوءتان بالفساد والحرص والدسائس والشؤم ، فإذا بها بريئتان كعينى الطفل ، صافيتان عذبتان ، حليمتان ، تنظران بروح التوكل والرحمة !

ثم قلت له : لقد بدر منى نحوك تقصير يا شيخى فأرجوك أن تعفو وتصفح !

ولكنه كعادته لم يجب بل ظل ساكتاً ، ثم نهضنا . عندئذ رأيت قربى شيخاً عجوزاً هرماً قد قوّست السنون ظهره وحنت جسمه فقلت فى نفسى : لا يداخلنى أى شك فى أن هذا الشيخ هو عشيق زليخا الساكت الصابر الوفى ، وأنه سيظل

محافظاً على هذا الحب حتى النفس الأخير !

ثم نظرت إلى نفسي وإليه فإذا بي أرى شيخين قد تقوّس كتفاهما وانحنى رأساهما إلى الأرض، يسيران ببطء ، ويسند أحدهما الآخر ، فخلت أنهما مريضان مخيفان قد انتشلا من الدنيا !

نوابغ الفكر العربى

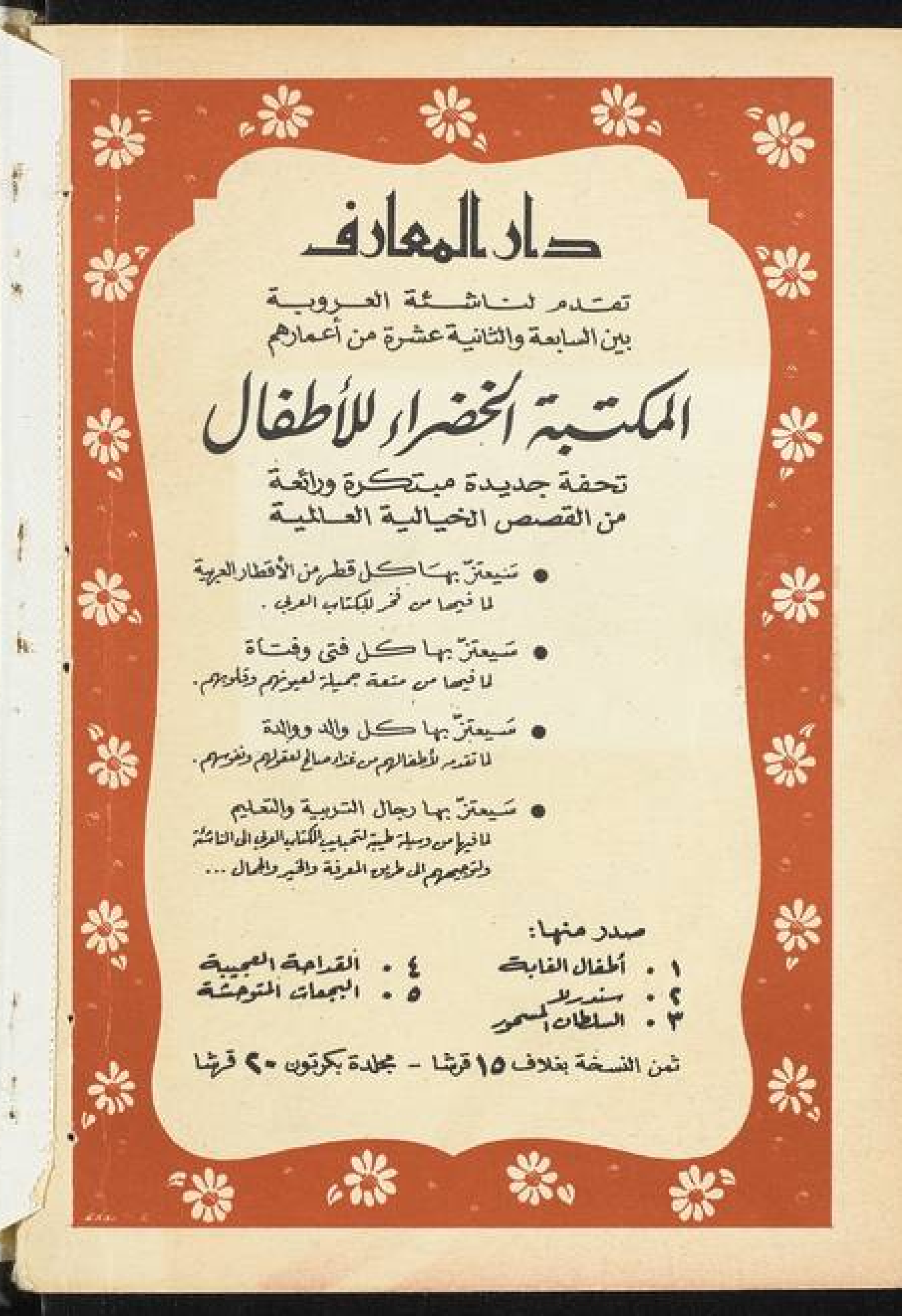
مجموعة وضعت على طريقة علمية حديثة تتناول دراسة عصر المترجم له ، ثم حياته وأثره فى عصره ، ثم عرض لآثاره ومذاهبه ، وفى نهاية كل ذلك نماذج مختارة من آثاره مبوبة بحسب أغراضه ومذاهبه .

صدر منها حتى الآن :

١ ابن رشد
٢ الجاحظ
٣ الشيخ نجيب الحداد
٤ محمود سامى البارودى
٥ ابن زيدون
٦ الشيخ ناصيف اليازجى
٧ إخوان الصفاء
٨ بشار بن برد
٩ بديع الزمان الهمذانى
١٠ أبو الفرج الأصبهانى
١١ ابن الرومى
١٢ الفرزدق
١٣ السهروردى

ثمن الكتاب ١٢,٥ قرشاً

دار المعارف



دار المعارف
تقدم لناشئة العروبة
بين السابعة والثانية عشرة من أعمارهم
المكتبة الخضراء للأطفال
تحفة جديدة مبتكرة ورائعة
من القصص الخيالية العالمية
• ستعتز بها كل قطر من الأقطار العربية
لما فيها من فخر للكتاب العربي .
• ستعتز بها كل فتى وفتاة
لما فيها من متعة جميلة لعيونهم وقلوبهم .
• ستعتز بها كل والد ووالدة
لما تقدم لأطفالهم من غذاء صالح لعقولهم ونفوسهم .
• ستعتز بها رجال التربية والتعليم
لما فيها من وسيلة طيبة لتحبيب الكتاب العربي الى الناشئة
ولتوجيههم الى طريق المعرفة والخير والجمال ...
صدر منها :
١ . أطفال الغابة
٢ . سندريلا
٣ . السلطان المسحور
٤ . القداحة العجيبة
٥ . البجعات المتوحشة
ثمن النسخة بغلاف ١٥ قرشا - مجلدة بكرتون ٢٠ قرشا